موهم التناقض في القرآن الكريم
دراسة نظرية ونماذج تطبيقية

د. عماد طه أحمد الراعوش
قسم القرآن وعلومه- كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



موهم التناقض في القرآن الكريم: دراسة نظرية ونماذج تطبيقية

د. عماد طه أحمد الراعوش
قسم القرآن وعلومه- كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

كلام الله عز وجل منزه عن التناقض، ولكن قد يقع للمبتدئ أو قليل العلم في بعض مواضع الاختلاف ما يتوهم فيه تناقضا وهو في الحقيقة ليس كذلك، صحيح أن الاختلاف قد يقع ولكنه اختلاف لا يؤدي إلى تناقض، إذ الاختلاف نوعان ما يؤدي إلى التنوع وما يؤدي إلى التناقض، والاختلاف المقصود دفعه عن القرآن هو الاختلاف الذي يؤدي إلى التناقض. وموهم التناقض المنفي عن القرآن يشمل مل يلي:

موهم التناقض بين آيات القرآن الكريم، ويلحق به موهم التناقض بين قراءاته المقبولة بأن يرد معنى في قراءة ويرد في قراءة أخرى معنى مختلف يؤدي إلى التناقض. كما يلحق به موهم التناقض بين القرآن الكريم والحديث الصحيح؛ لأنه كما لا يجوز أن يقع التناقض بين الوحي المتلو لفظا ومعنى، كذلك لا يجوز وقوعه بين الوحي المتلو لفظا والوحي المنزل بالمعنى.ويلحق بموهم التناقض ما بين آيات القرآن الكريم والأحداث التاريخية الثابتة؛ لأن القرآن خبر صادق لا يجوز أن يعارض غيره من الأخبار الصادقة.ومما يندرج تحت موهم التناقض ما يُتَوهم بين القرآن الكريم والثابت من حكم العقل، فالقرآن كلام الله والعقل إذا سار وفق كلامه فلن يخالفه، وإن خالفه فإما أن يكون العقل باطلاً أو مجرد شبهات، أو أن يكون الوحي خفي الدلالة ويحتاج إلى تأويل.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، لله القائل في محكم التنزيل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢). والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، القائل فيما يرويه عن ربه: "وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا".[1] والصلاة والسلام على من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وعلى خير القرون الذي نزل عليهم القرآن فقرأوه وتدبروه وساروا على نهجه ووعوا ما فيه من تناسق وانسجام وترابط، وما توهموا فيه شيئا من التناقض، إلا شيئا قليلا سألوا عنه نبيهم الكريم ونظروا فيه وتدبروه فزال بذلك الوهم واستحال إلى يقين، فكانوا بذلك خير القرون، تبعهم بالرتبة الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. إلى أن شاب العلمَ شيء من الجهل، وخالط اليقينَ شيء من الوهم، فتوهم من نظر في القرآن نظرة قاصرة أن في القرآن الكريم تناقضا، وحاشاه أن يكون فيه شيء من ذلك. إنما سبب ذلك قلة العلم غالبا وسوء النية وفساد المعتقد أحيانا، فظهر من يسأل عن أشياء من القرآن ظاهرها التناقض سؤال المتوهم أحيانا، وسؤال المشكك أحيانا أخرى. فانبرت طائفة من أئمة الهدى يفسرون ويؤولون ويرفعون وهم الواهمين ويدفعون شبهة الطاعنين، وصنفوا في ذلك مصنفات بعضها مستقل وبعضها ضمن مباحث أخرى من مباحث علوم القرآن، حتى اجتمع من ذلك علم جديد من علوم القرآن سماه بعضهم مشكل القرآن وضمنوه باب ما يوهم التناقض، واقتصر عليه بعضهم وسموه موهم المختلف أو موهم التناقض، وصنف آخرون تفسيرا خاصا بهذا النوع من الآيات، وضمنه آخرون كتب التفسير العامة مع شيء من التركيز على مثل هذه الآيات، وكلهم يسعى لرفع شك الشاكين وإزالة ريبة المرتابين ودفع شبهة الطاعنين.

أهمية الموضوع

لا أبالغ إن قلت: إن من أكثر الموضوعات التي استهوتني هذا الموضوع، ورغبت أن أكتب فيها لسببين:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار حديث رقم (٧١٣٦). انظر شرح النووي ٩/ ١٣٠.

الأول: ما في هذا البحث من إظهار لإحكام القرآن وانسجامه وإعجازه.

ثانيا: سمو أهداف هذا البحث، ومن أهمها كما قلت: رفع شك الشاكين ودفع شبهة الطاعنين، وعلى الرغم من وجود كتابات في الموضوع إلا أن بالإمكان أن أضيف شيئا جديدا في أكثر من باب منها طريقة رفع موهم التناقض حيث وجد.

منهج البحث

سأسلك في بحثي هذا مناهج المفسرين الذي يقوم على استقراء مظان موهم التناقض وأجمع الآيات بعضها إلى بعض وأحللها وأستنبط معانيها، مستعينا بالأثر والرأي وبما كتبه المفسرون والمؤلفون في هذا الموضوع.

وقد وجدت من ذلك مصنفات قليلة منها تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة وفوائد مشكل القرآن للعز بن عبد، كما وجدت تفسيرا لأبي بكر الرازي[1] اسمه أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب أي التنزيل، عني بهذا الباب بشكل مختصر، وآخر للشنقيطي ألحقه بتفسيره أضواء البيان وسماه دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، كما وجدت الزركشي أفرد له بابا في كتابه البرهان في علوم القرآن، ومثله فعل السيوطي في الإتقان.

ومن الجدير التنبيه إليه هنا أن العلماء اتفقوا غالبا في استقراء المواضع التي توهم لكنهم اختلفوا بعد ذلك في طريقتهم في رفع هذا الوهم كل حسب علمه ومذهبه ورأيه. من هنا وجدت أن لي مساحة لأكتب في هذا الموضوع ما سيكون إضافة نوعية إلى هذا العلم إذا ما يسر الله عز وجل لي ذلك.

خطة البحث

التمهيد وفيه:

معنى موهم التناقض

---

(1) هو زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، صاحب (مختار الصحاح)(..- بعد ٦٦٦ هـ ،..- بعد ١٢٦٨ م) وهو من فقهاء الحنفية، وله علم بالتفسير والأدب، أصله من الري. زار مصر والشام، وأقام في قونية سنة ٦٦٦ وهو آخر العهد به، وقد اختلف في تاريخ وفاته ولعله (٧١٢ هـ). ومن كتبه: شرح المقامات الحريرية وحدائق الحقائق في التصوف، وأنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، انظر ترجمته في الأعلام للزركلي، ٦/ ٥٥.

العلاقة بين المشكل وموهم التناقض والمصطلحات المقاربة.

هل في القرآن ما هو مشكل؟

الحديث عن موهم التناقض والتصنيف فيه

الفصل الأول

الاختلاف المنفي عن القرآن الكريم وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول: أنواع الاختلاف

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾

المبحث الثالث: فائدة القيد ﴿ كَثِيرا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾

المبحث الرابع: أسباب توهم التناقض وفيه خمسة مطالب

الأول: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة

الثاني: اختلاف الموضوع

الثالث: الاختلاف من جهتي الفعل

الرابع: الاختلاف في الحقيقة والمجاز

الخامس: الاختلاف بوجهين واعتبارين

الفصل الثاني

أقسام موهم التناقض وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: موهم التناقض بين آية وآية.

المبحث الثاني: كيفية إزالة موهم التناقض بين الآيات.

المبحث الثالث: موهم التناقض بين قراءات في آية.

المبحث الرابع: موهم التناقض بين القران الكريم والحديث النبوي.

المبحث الخامس: موهم التناقض بين القران الكريم والأحداث التاريخية الثابتة.

المبحث السادس: موهم التناقض بين القران الكريم والعقل الذي يسير وفق الشرع.

التمهيد

التعريف بموهم التناقض والمصطلحات التي تقاربه

معنى موهم التناقض

المعنى اللغوي

معنى الموهم: من وَهَمَ، والوَهْم من خطرات القلب والجمع أوهام، وتَوَهم الشيء: تخيَّله وتمثله كان في الوجود أو لم يكن. ويقال: وَهَمْت في كذا وكذا أي غلطت، ووهَم في الصلاة سها. وكذلك وهِم بكسر الهاء: غلط وسها.[١] وجاء في القاموس المحيط: الوَهْم من خطرات القلب، أو مرجوح طرفي المترَدَّد فيه.[٢]

ومعنى **التناقض**: من نَقَضَ، والنَقْض: إفساد ما أُبْرِم [٣]، وناقضه في الشيء مناقضة أي خالفه، والمناقضة في القول: أن يتكلم بما يتناقض معناه [٤]، والنقيضان من الكلام: ما لا يصح أحدهما مع الآخر نحو هو كذا وليس بكذا في شيء واحد وحال واحدة.[٥]

المعنى الاصطلاحي

عرف الزركشي موهم الاختلاف والتناقض بقوله: "هو ما يوهم التناقض بين آياته، وكلام الله عز جل منزه عن الاختلاف، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾(النساء:٨٢)، ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافا وليس به، فاحتيج لإزالته".[٦] غير أني رأيت أن تعريفه غير جامع.

والذي استنتجته من هذا التعريف وغيره من التعريفات التي ذكرت في الموهم والمشكل أن موهم التناقض: هو ظنُّ التعارض بين آيات القرآن أو قراءاته، أو بين القرآن والحديث الصحيح، أو الآثار الثابتة، أو العقل الصريح كما سماه شيخ الإسلام وهو السليم

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٦٤٣/١٢. ومختار الصحاح، الرازي، ص٧٤٠.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص١٥٠٧.

(٣) لسان العرب، ٢٤٢/٧، والقاموس المحيط، ص٨٤٦، والمفردات، الراغب، ص٥٠٥.

(٤) لسان العرب، ٢٤٢/٧. ومختار الصحاح، ص٦٨٨.

(٥) المفردات، الراغب، ص٥٠٦.

(٦) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ١٧٦، ونقل هذا التعريف، السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٧٩.

الذي يسير وفق مقدمات سليمة.

وقلت في تعريفي: ظنُّ التعارض إشارة إلى أن التناقض ليس واقعا حقيقة في كلام الله بل هو مجرد غلط، وهذا المعنى مما يحتمله لفظ الوهم ؛ لأن كلام الله جل شأنه منزه عن التناقض.

وأشار إلي ذلك صاحب أبجد العلوم حيث قال: " قلنا موهم الاختلاف والتناقض إذ كلام الله تعالى منزه عنهما، وإنما يكون ذلك بالنسبة إلى الأوهام القاصرة".[1]

وقيل: يقع للمبتدئ إشارة إلى أن هذا الوهم إنما يقع بسبب ضعف العلم والمعرفة بأساليب العربية وأساليب القرآن، وبسبب عدم امتلاك القدرة على التفسير وتدبر معاني التنزيل.

روى الطبري بسنده عن ابن زيد قال: "إن القرآن لا يكذّب بعضه بعضا، ولا ينقض بعضه بعضا، وما جهل الناس من أمره فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم. وقرأ: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)(النساء:٨٢) ثم قال: فحقّ على المؤمن أن يقول: كلّ من عند الله، ويؤمن بالمتشابه، ولا يضرب بعضه ببعض؛ وإذا جهل أمرا ولم يعرف أن يقول الذي قال الله حق"، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولاً وينقضه، ينبغي أن يؤمن بحقية ما جاء من الله".[2]

وهنالك سبب آخر لادعاء التناقض غير التوهم والغلط هو إثارة الشك حول القرآن الكريم ووصفه بالتناقض ووصف صاحب هذا الكلام بالنقص[3]، وهذا هدف قديم وحديث وإن تعددت وتنوعت وسائل الوصول إليه، لكنَّ أقصى ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوى أن تكون شبهات تقع في قلب ضعيف الإيمان قليل النظر، أما المؤمنون حقا والراسخون في العلم فيعلمون أنه الحق من ربهم يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ

---

(١) أبجد العلوم، للقنوجي، ٢/ ٤٢١، وانظر مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، ٢/ ٤٤٥

(٢) جامع البيان، الطبري، ٥/ ٢١٣

(٣) انظر تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، الحكاية عن الطاعنين، ص ٢٤

﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(آل عمران:٧).

وهذا تنويه إلى أصل هذه الدعوى ونقضها من أساسها، وسيظهر لنا عند دراسة الأمثلة نزاهة القرآن الكريم عن مثل هذه الدعوى، لأنه كلام الله وكلام الله حاشاه أن يتصف بالنقص، فهو المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

العلاقة بين المشكل وموهم التناقض والمصطلحات المقاربة

ألف ابن قتيبة ضمن كتابه تأويل مشكل القرآن بابا سماه التناقض والاختلاف.[١] وسمى الزركشي النوع الخامس والثلاثين من علوم القرآن معرفة موهم المختلف.[٢] وسمى السيوطي النوع الثامن والأربعين في مشكله وموهم التناقض،[٣] واتبع السيوطي طاش كبرى زاده في مفتاح السعادة والقنوجي في أبجد العلوم حيث كتبا بابا سمياه علم معرفة مشكل القرآن وموهم التناقض.[٤] وسمى الشنقيطي كتابه في هذا الباب دفع إيهام الاضطراب، التسميات وفي هذه كلها قدر مشترك في دلالتها على المقصود الذي بيناه من موهم التناقض. فموهم التناقض أو موهم الاختلاف والتناقض وموهم التعارض مشتركة في دلالتها على المدلول، أما المشكل فهو أعم من الموهم ودلالة الموهم مضمنة فيه بمعنى أن بينهما عموم وخصوص. فابن قتيبة مثلا يرى موهم التناقض من أبواب الإشكال أو سببا من أسبابه، لكن السيوطي ومن تبعه فيبدو أنهم اعتبروا المشكل وموهم المختلف بابا واحدا.

ولتوضيح العلاقة لا بد من تعريف المشكل ومقارنته بما سبق ذكره في تعريف موهم التناقض.

تعريف المشكل

المشكل من الشكل وهو الشبه، والمثل، والمشاكلة: الموافقة، ومشكل الشيء صورته المحسوسة والمتوهمة، وأشكل الأمر: التبس، ويقال للأمر المشتبه مشكل،

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، باب التناقض والاختلاف ص ٦٥.

(٢) انظر البرهان، الزركشي، النوع الخامس والثلاثين ٢/ ١٧٦.

(٣) انظر الإتقان، السيوطي، النوع الثامن والأربعين ٣/ ٧٩.

(٤) انظر مفتاح السعادة، طاش كبرى، زاده ٢/ ٤٤٥ وانظر أبجد العلوم، القنوجي، ٢/ ٤٢١.

وأشكل عليّ الأمر إذا اختلط.[1]

من خلال ما ذكر صاحب القاموس وصاحب لسان العرب فالمشكل الأمر الملتبس المختلط الذي يوقع الإنسان في الوهم، ويجعل الأمور متشابهة لا يظهر منها الوجه الصحيح.

المشكل في الاصطلاح

عرفه ابن قتيبة فقال عند حديثه عن المتشابه: "يقال لكل ما غمض ودق: متشابه وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره. ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة في أوائل السور: متشابه، وليس الشك فيها، والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها، والتباسها بها. ومثل المتشابه "المشكل". وسمي مشكلا؛ لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله. ثم يقال لما غمض – وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكلا".[2]

فابن قتيبة يرى أن المشكل ما غمض ودق والتبس ودخل في شكل غيره وأشبهه وشاكله.

وربط ابن قتيبة هنا بين المشكل والمتشابه في كون كل منهما غمض ودق، وفرّق بينهما في أن المشكل غمض لدخوله في شكل غيره، بينما المتشابه قد يغمض من غير جهة الشبه بغيره والالتباس به.

من خلال التعريف يظهر لي ما يلي:

1. المشكل ما دخل في شكل غيره فأوهم الالتباس، وموهم التناقض نوع من الإشكال ينشأ عن توهم التناقض بين النصوص، ولعل هذا ما جعل ابن قتيبة يدرج إيهام التناقض ضمن كتابه تأويل مشكل القرآن.
2. وعليه فإن العلاقة بين المشكل وموهم التناقض علاقة عموم وخصوص، فالمشكل أعم من موهم التناقض، بمعنى أن كل موهم للتناقض مشكل وليس العكس.
3. لعل سبب تسمية السيوطي للنوع الثامن والأربعين بالمشكل وموهم التناقض أنه يرى أن موهم التناقض سبب من أسباب الإشكال، وكان المقصود

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/٣٥٦. والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص١٣١٨.

(2) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص ١٠٢.

من تسميته لهذا الباب ما كان مشكلا بسبب توهم التناقض فيه، وهو بهذا لا يخالف ما ذهب إليه ابن قتيبة والزركشي، لكن الزركشي ترك الحديث في هذا الباب عن باقي أسباب المشكل، واقتصر على سبب واحد هو إيهام الاختلاف، والذي يؤكد ذلك أن الزركشي لم يذكر أي سبب من أسباب الإشكال الأخرى في هذا الباب مما ذكر ابن قتيبة، وكذلك السيوطي اقتصر على موهم التناقض واكتفى بنقل ما ذكره الزركشي ولم يزد سوى إضافة لفظ (مشكل) إلى العنوان، وهذا يدل على أن ما ذهب إليه السيوطي ليس غير ما ذهب إليه الزركشي لكن تسمية الزركشي أدق، وكان الأولى بالسيوطي أن يلتزم بالتسمية التي سماها الزركشي كما التزم بالنقل عنه في هذا الباب.

٤. لعل مما دفع السيوطي إلى تسمية بابه: المشكل وموهم التناقض، أن الزركشي ذكر لفظ الإشكال في هذا الباب في سياقين:

الأول: عند محاولته إزالة التناقض المتوهم بين قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء:٣) مع قوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(النساء:١٢٩) قال: "ويمكن أن يكون المراد بالعدل في الثانية العدل التام وأشار إليه ابن عطية، وقد يحتاج الاختلاف إلى تقدير فيرتفع الإشكال ".[1] ومعنى كلام الزركشي أن الإشكال الناشئ عن توهم التناقض يزول بتقدير العدل التام بعد تعدلوا في الآية الثانية، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه من أن الإشكال أعم من توهم التناقض وأن الثاني سبب أو نوع من الأول.

الثاني: قال الزركشي: "ومما استشكلوه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾(الكهف:٥٥) فإنه يدل على حصر المانع في الإيمان في أحد هذين الشيئين، ثم قال ناقلا

(١) البرهان، الزركشي، ٢/ ١٨٧.

عن العز ابن عبد السلام:[1] إن الأولى حصر للمانع الحقيقي، والثانية حصر للمانع العادي.[2]

ويقال في هذا نحو: ما قيل في سابقه، وقد ذكر السيوطي لفظ الإشكال في هذين السياقين فقط، وهذا يؤكد أنه لم يذهب إلى غير ما ذهب إليه الزركشي.

هل في القرآن الكريم ما هو مشكل؟

هنالك من ذهب إلى أن في القرآن مشكلا ومنهم ابن قتيبة في كتابه مشكل القرآن، والعز بن عبد السلام في كتابه فوائد في مشكل القرآن واسما الكتابين يدلان على ذلك. فابن قتيبة يرى أن في القرآن مشكلا وذكر من أسبابه: التناقض والاختلاف.[3]

وهنالك من يرى أنه ليس في القرآن ما هو مشكل، وما ذكره الفريق الآخر من موضوعات ليست إشكالا في ذات القرآن، بل قصر نظر في الناظر في القرآن يقع للمبتدى غير المتمرس في علم اللغة والتفسير. ويرى هذا الفريق أن العلماء درسوا هذه المواضع وبينوها بيانا يزيل الإشكال.

والذي أراه أن القول بوجود مشكل في القرآن ليس معناه أن هنالك إشكالا في ذات القرآن بل هو إشكال متوهم يقع للمبتدى دون المتمرس، وأن مثل هذا الإشكال يمكن أن يزال بالنظر والتأمل ومعرفة وجوه التأويل، لذا فالإشكال قد يقع لشخص دون آخر وقد يقع للشخص الواحد في زمان ويرتفع في زمان آخر إذا ازداد علمه وقوى نظره، وهذا يدل على أن الإشكال ليس ذاتيا في القرآن بل عائد للناظر في القرآن.

وعليه فإن من قالوا بوجود مشكل في القرآن قصدوا أنه يمكن وقوعه لفئة من الناس بسبب عجز في ذواتهم. ومن نفوا وجود المشكل في القرآن قصدوا تنزيه القرآن في ذاته عن الإشكال ورأوا أن هذا الوصف لا ينبغي إلصاقه بالقرآن الكريم كلام الله البيّن المنزّه عن كل نقص.

الحديث في موهم التناقض والتصنيف فيه

بدأ الحديث في موهم التناقض منذ بدأ نزول القرآن، حيث كان الصحابة إذا توهموا

---

(١) فوائد في مشكل القرآن، العز بن عبد السلام، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٢) انظر البرهان، الزركشي، ص ١٩٣.

(٣) انظر كتابه تأويل مشكل القرآن، ص ٦٥ وما بعدها.

شيئا سألوا عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ومثال ذلك ما رواه البخاري عن عائشة قالت: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس أحد يحاسب إلا هلك قلت: يا رسول الله جعلني فداءك، أليس يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: ذاك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك ".[1]

غير أن أمر موهم التناقض لم يكن مشكلا في هذا العهد، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبين الأمر ويزيل الإشكال وقوله وحي ملزم. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أصبح موهم التناقض نوعا من المشكل الذي يحتاج إلى نظر وتدبر وسؤال لأهل العلم، وصار الناس يلجأون في دفع الإشكال والتناقض المتوهم إلى من عُرفوا بالتفسير من الصحابة مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ومن ذلك ما رواه البخاري عَنْ سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ قَالَ تعالى: ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾. وقال: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾، وقال: ﴿ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَقَالَ: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ دَحَاهَا ﴾ فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إِلَى ﴿ طَائِعِينَ ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ السَّمَاءِ. ثم ذكر له مسائل من هذا القبيل فأجابه ابن عباس عليها ثم قال له: " فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله ".[2] وكانت هذه المسائل من قبيل طلب العلم والفهم.

وقد وصلنا من ذلك ما سمي بمسائل نافع بن الأزرق الخارجي، ومعظم مسائله من الغريب غير أن فيها ما يندرج تحت موهم التناقض، فقد روي أنه جاء ابن عباس وهو جالس بفناء الكعبة فسأله عن عدة مسائل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾(النساء: ٤٢) مع قوله: (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)(الأنعام: ٢٣).[3]

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. كتاب التفسير، باب ". فسوف يحاسب حسابا يسيرا ". حديث رقم ٤٩٣٩، ٨/ ٨٩٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم السجدة فصلت، رقم الحديث: ٤٥٣٧، ٤/ ١٨١٥.

(٣) ذكرت الروايات باستيعاب واستقصاء بنت الشاطئ في الإعجاز البياني للقران ومسائل نافع بن الأزرق ص ٢٨٩ وما بعدها غير أن معظم هذه المسائل ليست من باب موهم الاختلاف بل من المشكل والغريب، لذلك أخرجها الزركشي والسيوطي في باب غريب القرآن.

وبعد ذلك صار طرح مثل هذه المسائل لأحد غرضين: من أجل الفهم أو بقصد الطعن. ثم تتابع التأليف في هذا الموضوع على نحو ما ألف في مختلف الحديث وبيان الجمع بين موهم المختلف فيه، وقد ذكر الزركشي ذلك حيث قال: " رأيت لقطرب فيه تصنيفا حسنا جمعه على السور ". [1] وكتاب قطرب هذا ألفه للرد على الملحدين في متشابه القرآن. لكن أول كتاب وصلنا فيه حديث عن موهم التناقض هو كتاب ابن قتيبة المروزي (٢٧٦هـ) المسمى تأويل مشكل القرآن، وبعد ذلك تتابعت التصانيف في الموضوع بعضها اقتصر على المشكل وجعل موهم التناقض بابا من أبوابه. مثل كتاب الفوائد في مشكل القرآن للإمام عز الدين بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)، وكتاب أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل للإمام محمد بن أبي بكر الرازي (٧١٢هـ على اختلاف في تاريخ وفاته)، وكتاب تيجان البيان في مشكلات القرآن لمحمد أمين العمري (١٢٠٣هـ)، وكتاب دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب للشيخ محمد أمين الشنقيطي (١٣٩٣هـ). وبعضها اعتنى بالرد على الشبهات التي أثيرت حول القرآن الكريم مثل كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن. للقاضي عبد الجبار الهمذاني (٤١٥هـ).. ومن الشبهات التي اعتنى بردها ما كانت شبهته التناقض.

ومن هذه المصنفات كتب علوم القرآن التي تناولت موهم التناقض في باب من أبوابها مثل البرهان في علوم القرآن للزركشي (٧٩٤هـ) جعل فيه بابا لموهم الاختلاف – كما سماه– وذكر فيه أسباب وقوع الاختلاف وأنواع موهم الاختلاف، ونقل عن أبي اسحق الاسفراييني طريقة التوفيق بين ما ظاهره التناقض، وذكر أمثلة كثيرة على ما يوهم الاختلاف وأقوالا في رفعه. وتبعه السيوطي (٩١١هـ) في الإتقان في علوم القرآن إذ نقل فيه عن الزركشي هذا الباب مختصرا وسماه مشكله وموهم التناقض.

وتتابع التصنيف بعدها وما زال حتى هذا الوقت، ومما ألف في هذا الموضوع سلسلة من الرسائل الجامعية في موهم التعارض بين القرآن والسنة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تناولت القرآن من أوله إلى آخره واختصت في موهم التعارض بين القرآن والسنة، ولكل من ألفوا من هذه المصنفات منهج خاص، والجميع يتفقون في استقراء مواضعه، ويختلفون في طريقة دفعه، وكل يقصد تنزيه القرآن الكريم عن المطاعن.

---

(١) البرهان، الزركشي، ٢/ ١٧٦.

الفصــــل الأول

الاختلاف المنفي عن القرآن الكريم

المبحث الأول: أنــواع الاخــتلاف

قلت فيما سبق كلام الله منزه عن الاختلاف وقصدت بذلك: الاختلاف الذي يؤدي إلى التناقض والفساد إذ الاختلاف أنواع:

- **أولهما:** اختلاف تتغاير فيه الألفاظ والمعنى واحد.
- **ثانيهما:** اختلاف تتغاير فيه المعاني، لكنه تغاير تنوع لا يؤدي إلى تناقض المعنى وفساده.
- **ثالثهما:** اختلاف تتغاير فيه المعاني ولا يمكن الجمع بينها من كل الوجوه وهو التناقض.

والثالث هو الاختلاف الذي لا يجوز في كلام الله عز وجل إلا فيما يكون ناسخا ومنسوخا. يقول ابن قتيبة: "الاختلاف نوعان: اختلاف تغاير، واختلاف تضاد، فاختلاف التضاد لا يجوز، ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهى من الناسخ والمنسوخ. واختلاف التغاير جائز".[1]

والتناقض المقصود دفعه عن القرآن هو التناقض من كل الجهات، إذ كل كلامين ظاهرهما التناقض إذا رفع تناقضهما بوجه من وجوه التأويل أو بإضافة قيد إلى أحدهما كزمان أو مكان أو حال فليسا متناقضين، وإنما المتناقضان ما تضادا من كل جهة.

يقول الراغب: "إن الخبرين اللذين أحدهما نفي والآخر إثبات إنما يتناقضان إذا استويا في الخبر والمخبر عنه، وفي المتعلق بهما، وفي الزمان والمكان، وفي الحقيقة والمجاز، فأما إذا اختلفا في واحد من ذلك فليسا بمتناقضين".[2] نحو أن يقال: أكل زيد ولم يأكل زيد، وتريد بالأول زيد الشاعر وبالآخر زيد التاجر، فالفاعل ليس واحدا، حتى وإن كان الفاعل واحدا فقد لا يكون الخبران متناقضين إذا أردت في كل خبر مفعولا غير الآخر نحو أن تقول أكل زيد الخبز ولم يأكل زيد التمر، وقد لا يتناقض الخبران وإن كان الفاعل

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص ١٧٣.

(٢) مقدمة جامع التفاسير، الراغب الأصفهاني، ص ٦٩.

والمفعول واحدا إذا قصد من كل خبر حالا غير الآخر، نحو أن تقول أكل زيد الخبز قاعدا ولم يأكل زيد الخبز قائما، وهكذا إذا أضفنا للخبر زمان، أو مكانا، أو آلة. أو غير ذلك من الجهات، فالتناقض إنما يكون عند الاختلاف من كل الجهات وهو ما يسمى استحكام الجهة، أما إن حل الاختلاف ولو من جهة فليس هنالك تناقض وهو ما يسمى بانفكاك الجهة.

* * *

المبحث الثاني

معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢)

الآية استدلال على أن القرآن من عند الله بدليلٍ مُقدمتُه الأولى: لو كان من عند بشر لكان فيه اختلاف، والثانية: الواقع أنه ليس فيه اختلاف، فالنتيجة أنه من عند الله.

والاختلاف المنفي عن القرآن الكريم يحتمل معنيين، وقد ذكر الغزالي عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢) أن "الاختلاف لفظ مشترك بين معان [1]". ثم بين رحمه الله أن لفظ الاختلاف الوارد في الآية يحتمل معنيين:

الأول: اختلاف الناس فيه.

الثاني: اختلاف في ذات القرآن الكريم.

ولعل المقصود من المعنى الأول:

١. اختلاف الناس في القرآن بين مصدق به ومكذب.

٢. اختلاف الناس في فهم آياته واستنباط أحكامه.

والمعنى الأول غير مقصود قطعا بدليل القرآن والعقل والتاريخ، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣) فالله تحدى الخلق بالإتيان بمثل القرآن إن كانوا في ريب منه ذلك لأن بعض الناس كان في ريب منه، ومن الأدلة كذلك على وقوع اختلاف الناس في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة:٢٦). والريب هنا نوع من اختلاف الناس في القرآن، وما دام هذا النوع من الاختلاف واقعا فليس هو المقصود من الاختلاف المنفي في هذه الآية.

ولو كان معنى الاختلاف: اختلاف الناس فيه لانعكس مقصود الآية وصار المعنى أنه

---

(١) نقل كلام الغزالي هذا الزركشي في البرهان، ٢/ ١٧٨

من عند غير الله لوجود الاختلاف فيه.

وليس كذلك المقصود من الاختلاف في الآية اختلاف الناس في فهمه واستنباط أحكامه لأن هذا النوع من الاختلاف واقع كسابقه بدليل قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾(النحل: ٣٩) وكما أنه ثبت اختلاف الناس في فهم آيات القرآن واستنباط أحكامه منذ عصر الصحابة إلى يومنا هذا.

يبقى أن المقصود الاختلاف في ذات القرآن وفي هذا الاحتمال ذكر المفسرون ثلاثة أقوال في معنى الاختلاف في ذات القرآن:

أحدها: أنه التناقض.

الثاني: الكذب، أي: يكذب بعضه بعضا.

الثالث: أنه اختلاف تفاوت من جهة البلاغة بعضه بليغ، وبعضه مرذول.

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾(النساء: ٨٢) معناه: "لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغا حد الإعجاز، وبعضه قاصرا عنه، وبعضه إخبارا بغيب قد وقع الإخبار عنه، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء، وتناصر صحة معان وصدق إخبار علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ".[1]

أما غير هذا من الاختلاف الذي لا يؤدي إلى التناقض فليس مما نفي عن القرآن، ومن ذلك اختلاف الألفاظ الذي لا يؤدي إلى تغير المعنى أو الذي يغير المعنى ولا يؤدي إلى التناقض، أو التنويع في أساليب التعبير مما يكون كله في أعلى درجات البلاغة، فذلك كله موجود في القرآن ولكنه لا يؤدي إلى التناقض والفساد.

يقول الكرماني: " الاختلاف على وجهين: اختلاف تناقض: وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر، وهذا هو الممتنع على القرآن، واختلاف تلازم: وهو ما يوافق

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٤٠. وذكر نحوه الزركشي، في البرهان، ٢/ ١٧٨. والألوسي في روح المعاني، ٥/ ١٢١.

الجانبين كاختلاف مقادير السور والآيات واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ والأمر".[1]

وليس من الاختلاف المنفي المفاضلة بين آيات القرآن الكريم، فقد ثبت أن آية الكرسي أفضل آية، وسورة الفاتحة والإخلاص لهما فضل خاص، لأن المفاضلة بين آي القرآن إنما هي بين موضوعاتها، فآية الكرسي التي تتحدث عن تنزيه الله أفضل من سورة المسد التي تذم أبا لهب. مع القطع بأن كل آي القرآن بلغ أعلى رتبة في البلاغة، وبتعبير أدق وأليق بالقرآن يقال: إن كل آية هي الأفضل في موضوعها، وقد تكون المفاضلة في ثواب التلاوة.

وبناء على ما سبق يمكن أن نستنبط أنواع الاختلاف المنفي عن القرآن الكريم ونجملها فيما يلي:

أولا: الاختلاف بين آيات القرآن الكريم وهذا يشمل:

١. الاختلاف في الألفاظ: بأن يكون بعضه فصيحا بليغا وبعضه الآخر ليس كذلك.
٢. الاختلاف في النظم: بأن بعضه جزلٌ وبعضه الآخر ليس كذلك.
٣. الاختلاف في المعنى: بأن يدعو بعضه إلى أمر، ويدعو بعضه الآخر إلى ما يناقض هذا الأمر، أو أن يخبر بعضه بخبر وبعضه الآخر بخبر يناقض الأول.

ثانيا: يلحق بالاختلاف بين آياته الاختلاف بين قراءاته المقبولة، بأن يرد معنى في قراءة ويرد في قراءة أخرى معنى يناقضه؛ لأن القراءة المقبولة آية من القرآن. وليس من ذلك اختلاف القراءات في اللفظ بما لا يغير المعنى أو الاختلاف في المعنى مما يكون اختلاف تغاير، لا تناقض وتضاد.

ثالثا: الاختلاف بين القرآن الكريم والحديث الصحيح مما يؤدي إلى التناقض، وهذا ليس له في الحقيقة وجود؛ لأن الحديث الصحيح معناه وحي مثل القرآن، وكلاهما كلام الله ولا يجوز وقوع التناقض بين كلام الله.

رابعا: الاختلاف بين آيات القرآن الكريم والثابت من النقل مما وقع أو سيقع مما يؤدي إلى التناقض، ولعل هذا ما قصده الزمخشري حيث قال: "فكان... بعضه إخبارا

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمد بن حمزة الكرماني، ص٣٠١.

بغيب قد وقع الإخبار عنه وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه".[1]

خامسا: الاختلاف بين القرآن الكريم والثابت من حكم العقل السليم الذي يسير وفق الشرع مما يؤدي إلى التناقض؛ لأن القرآن كلام الله تعالى والعقل خلقه فإذا سار العقل وفق شرع الله فلا يجوز وقوع التناقض بينهما.

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني: "لا يجوز تعارض آي القرآن والآثار التي توجبه أدلة العقل ".[2]

فائدة القيد (كَثِيراً) في قوله تعالى: ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾

(كَثِيراً) في قوله تعالى: ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ قيد ولا بد لهذا القيد من فائدة، وفائدة القيد قد تكون للاحتراز أو غيره، فهل هي هنا للاحتراز؟ وبناء عليه هل المقصود نفي الاختلاف الكثير دون القليل؟ وهل يفهم من ذلك وجود الاختلاف القليل في القرآن؟

وبيان ذلك أن مفهوم المخالفة يُستدل به عند بعض العلماء إن كان القيد للاحتراز. أما إن ظهرت فائدة غير الاحتراز فلا يُستدل بدليل المخالفة. وبالنظر في الآية يظهر لنا فائدة للقيد غير الاحتراز وهي بيان الواقع، إذ الواقع أن كلاما طويلا بطول القرآن نظم خلال فترة زمنية طويلة كحال القرآن، لو كان من عند بشر فسيكون فيه اختلاف كثير لا قليل.

وإذا ثبت ذلك فهل يفهم من نفي الاختلاف الكثير في آي القرآن بمفهوم المخالفة إثباته لكل كلام الناس؟ والجواب أن هذا غير وارد؛ لأن الواقع يثبت وجود كلام للناس وكتب ليس فيها الاختلاف بمعنى الكذب والتناقض والتفاوت بين بعضه في الجزالة.

والقول في هذا مثل سابقه وهو أن كتابا بطول القرآن نزل بفترة زمنية طويلة لو كان من عند البشر لوجدوا فيه اختلافا كثيرا. وهذا لا يعنى أن كل كلام للبشر فيه اختلاف كثير، إذ قد لا يكون الكلام طويلا كطول القرآن ويكون خاليا من التناقض، أو قد ينظم هذا الكلام بفترات متقاربة فيكون منسجما متناسقا ليس فيه اختلاف وتناقض.

يقول محمد بن أبي بكر الرازي في كتابه أنموذج جليل: "إن التقييد بوصف الكثرة

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٤٠.

(٢) نقل هذا القول الزركشي في البرهان، ٢/ ١٨١. والسيوطي، في الإتقان، ٣ / ٨٩.

للمبالغة في إثبات الملازمة، فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فضلا عن القليل، وليس فيه اختلاف قليل ولا كثير، فكيف يكون من عند غير الله ؟ فهذا المقصود من التقييد بوصف الكثرة لا أن القرآن مشتمل على اختلاف قليل... ثم يقول: إن كل كتاب في فن من العلوم إن كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة. يعرف ذلك بالاستقراء والقرآن جامع لفنون من العلوم شتى، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه بالنسبة إلى كل فن اختلافا ما، فيصير مجموع الاختلاف اختلافا كثيرا".[1]

* * *

---

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب أي التنزيل، محمد بن أبي بكر الرازي، ص ٩٠.

المبحث الثالث: أسباب توهم التناقض

تقرر لدينا أن الاختلاف بمعنى التعارض والتناقض ليس موجودا في القرآن، وأن ما يظهر من اختلاف ليس حقيقيا بل مُتَوهَم يمكن إزالته بالنظر والتأمل وطرق الجمع والتوفيق والترجيح بين النصوص، ولعل من المهم بعد ذلك معرفة أسباب توهم التناقض[1]، لأن معرفة السبب تعين على رفع التناقض المتوهم، وتظهر ما بين النصوص من توافق وترابط.

ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلي:

الأول: وقوع المخبر عنه على أحوال مختلفة

ومثال ذلك ما يُتَوهم من تناقض بين الآيات التي ذكرت أطوار خلق آدم وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩) وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٦) وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ (الصافات: ١١) وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: ١٤) فظاهر هذا التناقض، فمرة يُفهم أن الله خلق آدم من تراب، وثانية من حمأ، وثالثة من طين، ورابعة من صلصال. وسبب هذا الاختلاف بيان الأحوال المختلفة والتطورات التي مر بها خلق آدم فهي ليست حديثا عن حالة واحدة بل عن حالات وتطورات عدة.

يقول أبو بكر الرازي في التوفيق بين الآيات: " كلها متفقة في المعنى، لأن الله تعالى خلقه من تراب ثم جعله طينا ثم من حمأ مسنون ثم صلصالا ".[2]

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء: ٣٢) وقوله في موضع آخر: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ (القصص: ٣١) فهل هي ثعبان أم جان؟ وهذا مما يوهم التناقض، لكنّ هذا الاختلاف ليس إلا بيانا لأحوال هذه العصا، فهي كالثعبان في خلقها والجان في خفة حركتها.

---

(١) ذكر هذه الأسباب الزركشي في البرهان، ص ١٨٣، ونقلها عنه السيوطي في الإتقان ٣ / ٨٤.

(٢) أنموذج جليل، الرازي، ص ٥٩٠.

وفي التوفيق بين الآيتين هنالك ثلاثة وجوه هي[1]:

1. أن التشبيه بها باعتبار سرعة حركتها وخفتها لا في هيئتها وجثتها. فلا يقال: إنه عليه السلام لما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فكيف يصح تشبيهها بالجان.
2. يحتمل أن يكون المراد تشبيهها بها في الهيئة والجثة ولا ضير في ذلك؛ لأن لها أحوالاً مختلفة تَدِّق فيها وتغلظ.
3. أن الجان يطلق على ما عَظُم من الحيات، فيراد ذلك عند تشبيهها بها.

وقد اقتصر البيضاوي[2] على الأول والثاني. وأقوى هذه الوجوه عندي الأول وهو ما ذهب إليه الألوسي[3].

الثاني: اختلاف الموضوع

المثال الأول: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤) وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦) موهما مع ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩) فالآيتان الأوليان تثبتان سؤال الله للناس يوم القيامة، أما الآية الثالثة فتنفي هذا السؤال، وفي التوفيق بين الآيتين عدة أوجه كلها ينبني على اختلاف موضوع كل آية ومن هذه الأوجه:

1. أن القيامة مواضع وأماكن كثيرة، مواضع فيها سؤال ونقاش، ومواضع يرحم الله فيها الناس فلا سؤال ولا نقاش. يقول الألوسي: "﴿لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم وهذا في موقف، وما دل على السؤال من نحو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٩٢) في موقف آخر. وقيل السؤال عند الحساب، وتركه عند الخروج من القبور"[4].
2. أن القيامة أيام كثيرة ومراحل متعددة يسأل الله فيها الناسَ جميعا فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة انقطع الكلام وامتنع السؤال، وهذا ما نقله ابن

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ٢٠ / ٣٧٩.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤ / ١٧٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي، ٢٠ / ٣٧٩.

(٤) روح المعاني، الألوسي، ٢٧ / ١٦١.

قتيبة عن ابن عباس واختاره حيث قال: " إن يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج:٤) ففي هذا اليوم يسألون وفيه لا يسألون - يقصد أنهم يسألون حينا ولا يسألون حينا آخر- لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (الرحمن:٣٧) وانقطع الكلام... قال ابن عباس: " هو موطن لا يسألون فيه ".[١]

٣. حيث ذُكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير، وحيث نُفي فهو استخبار محض عن الذنب.[٢]

٤. المسؤولون مختلفون: أما الكفار فيسألون، وأما المؤمنون فيرحمون. وهذا القول فيما أرى بعيد لأن اللفظ في الموضعين يفيد العموم الذي يشمل المؤمن والكافر.

٥. حمل الآية الأولى والثانية على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وحمل الثالثة على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه.

باستعراض هذه الأقوال يظهر أن الأول والثاني متقاربان جدا، والاختلاف في أن الأول ينبني على اختلاف المواضع، والثاني على اختلاف المراحل، لكن مآلهما اختلاف الموضوع. وهما الأقوى عندي أما الثالث فمحتمل وأما الرابع والخامس فبعيدان، ولا دليل فيهما على تخصيص اللفظ العام.

المثال الثاني: التناقض المتوهم بين قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:٢٣) وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء:٤٢) فالأولى تفيد أن المشركين يكتمون كفرهم يوم القيامة، والثانية تفيد أنهم لا يستطيعون كتم شيء على الله.

وهذا الخلاف يزال باعتبار تغاير موضوع الآتيين وهو ممكن بوجوه:

١. أن القيامة مواطن ففي بعضها يكذبون، وفي بعضها لا يقدرون على ذلك، نقل

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، ص ٦٥.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير. ١٣٨١.

هذا الوجه الشنقيطي في دفع إيهام الإضراب حيث قال: ". وأجاب بعضهم بتعدد الأماكن، فيكتمون في وقت ولا يكتمون في وقت آخر".[1]

٢. أن الكذب يكون بأقوالهم والصدق يكون بجوارحهم، فهم لما رأوا يوم القيامة وعرفوا أن الله يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، قالوا رجاء أن يغفر لهم: (مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، فختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك:)لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً)(النساء:٤٢).

وفي ذلك روى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير، قال: "جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: أشياء تختلف عليّ في القرآن؟ فقال: ما هو؟ أشكّ في القرآن؟ قال: ليس بالشك، ولكنه اختلاف. قال: فهات ما اختلف عليك، قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:٣٢) وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء ٤٢) وقد كتموا فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:٣٢) فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره جحد المشركون، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاء أن يغفر لهم، فختم على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢)".[2]

وعليه فإن موضوع الآية الأولى في أوقات أو مواضع من يوم القيامة، وموضوع الثانية أوقات أو مواضع غير الأولى، أو أن موضوع الأولى بيان ما يصدر عن ألسنتهم، وموضوع الثانية بيان ما يصدر عن جوارحهم.

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب، ضمن تفسير أضواء البيان، الشنقيطي، ١٠ / ٨٢. وأنموذج جليل، الرزاي، ص١٣٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ٥ / ٦٠ ، وذكر التوفيق البيضاوي، في أنوار التنزيل، ٢ /٧٥. وذكره السيوطي في الإتقان، ٣ / ٧٩ – ٨٠ ، والشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب، أضواء البيان ١٠/ ٨٢.

الثالث: اختلافهما في جهتي الفعل

مثال ذلك قوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال:١٧) روي " أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر رمى الكفار من حصى الوادي في وجوههم، وقال: (شاهت الوجوه). فلم يبق مشرك إلا وقع في عينيه شيء من ذلك، فشغلوا وانهزموا فتبعهم المؤمنون يقتلون منهم ويأسرون"[١]. والظاهر من الآية نفسها نفي فعل الرمي وإثباته وهذا ظاهره التناقض في آية واحدة، غير أن هذا الاختلاف الظاهر يزول بالنظر والتأمل والتفريق بين نوع الإسناد في كل فعل من الفعلين المنفي والمثبت، وفي هذا التوفيق وجوه يقول العز بن عبد السلام: " إن المراد بالرمي ها هنا، المرتب على الرمي، وهو الوصول إلى الكفار، ولا خفاء أن وصول المَرمي إليه ليس الرمي حقيقة فيه، بدليل قولنا: " رميت وما وصل إليه، فالذي عليه السلب ها هنا مجاز لا حقيقة، وتقدير الكلام على ثلاثة أوجه: " أحدهما: ما رميت خلقا إذ رميت كسبا. الثاني: وما أوصلت إلى أعينهم إذ شرعت فيه الثالث: وما رميت مجازا إذ رميت حقيقة". [٢]

١. أضيف القتل إلى الله بمعنى أنه خلق القدرة في الإنسان على القتل والرمي، وأضيف إلى الإنسان بمعنى أنه هو الذي باشر فعل القتل والرمي.
٢. الرمي يشمل القبض والإرسال وهما من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، أما إصابة الكفار بما رمى فهي من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرمي قبضة من تراب فتصل إلى سائر الجيش.

يقول الطبري:" قد علمتم إضافة الله رمي نبيه صلى الله عليه وسلم المشركين إلى نفسه، بعد وصفه نبيه به، وإضافته إليه، وذلك فعل واحد، كان من الله تسبيبه وتسديده، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحذف والإرسال".[٣]

وذلك يشتمل على كل الأسباب التي مدّ الله بها جيش المسلمين وكانت السبب

---

(١) أخرجه مسلم، ٣/ ١٤٠٢.

(٢) فوائد في معرفة مشكل القرآن، العز بن عبد السلام، ص ١٢٦.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٢٤٠.

الأقوى للنصر أقصد مدد الملائكة وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين وتثبيت قلوب المؤمنين وإقدامهم وذلك كله فعل الله، لذا نفى الفعل عنهم ونسبه إليه.

٣. " وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت الحصى في وجوههم، ولكن الله رمى الرعب في قلوبهم ".[1] وهذا التأويل يقوم على اختلاف الفعلين من جهة المفعول به، فمفعول كل فعل يختلف عن الآخر، وبهذا يرتفع الاختلاف المنفي عن القرآن الكريم. وهذه الوجوه عندي جميعها محتملة وأقواها الثاني ثم الأول.

الرابع: اختلافهما في الحقيقة والمجاز

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:٢) فظاهر هذه الآية الاختلاف حيث نسب السكر إلى الناس يوم القيامة ثم نفاه عنهم في الآية نفسها.

ولكن هذا الاختلاف يزال بحمل كل لفظ على ما يناسبه من الحقيقة أو المجاز، وعندها سنجد أن نسبة السكر إلى الناس على سبيل المجاز فحالهم كأنه حال السكارى بسبب ما يرونه من أهوال يوم القيامة، ولكنهم في الحقيقة ليسو سكارى، بمعنى أنهم لم يتناولوا مسكرا حقيقة وهذا المقصود من نفي السكر عنهم.

يقول القرطبي: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ ﴾ أي من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع. ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾ من الخمر. وقال: أهل المعاني: وتُرى الناس كأنهم سكارى ".[2]

الخامس: بوجهين واعتبارين

هو الجامع للمفترقات كما يقول الزركشي".[3] ومن أمثلته:

المثال الأول: ما يتوهم من تعارض بين قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ

---

(١) أنموذج جليل، الرازي، ١٦٥.

(٢) الجامع لأحكام القران، القرطبي، ١٢/ ٩.

(٣) البرهان، الزركشي، ٢/ ١٨٩.

﴿ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨) مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢)، فالأولى تفيد أن قلوب المؤمنين إذا ذُكر الله اطمأنت، والثانية تفيد أنها إذا ذُكر الله وَجِلت، وقد يتوهم أن الوجل هنا خلاف الطمأنينة، ولإزالة هذا الخلاف المتوهم تحمل آية من الآيتين على اعتبار خاص وحالة خاصة، فهم إذا ذكر الله اطمأنت قلوبهم بالتوحيد ووجلت من الخوف من الضلال [١]، ويؤيد هذا الجمع ما جاء في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣) فهؤلاء سكنت نفوسهم إلى معتقدهم ووثقوا، فانتفى عنهم الشك. [٢]

المثال الثاني: ما يتوهم من تعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام: ٦١) وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة: ١١)، وبين قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٠)، مثّل الزركشي بهذا المثال على هذا الوجه [٣] ثم نقل عن البغوي [٤] وجها للجمع بينها هو أن توفي الملائكة بالقبض والنزع، وتوفي ملك الموت بالدعاء والأمر إذ يدعوا الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، وتوفي الله سبحانه خلق الموت فيه.

---

(١) دفع إيهام الاضطراب، الشنقيطي، ص ١٣٥.

(٢) البرهان، الزركشي، ٢/ ١٩٠ وانظر الإتقان السيوطي، ٣ / ٨٦.

(٣) البرهان الزركشي، ٢/ ١٩٢.

(٤) انظر معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٠٢-١٠٣ سورة الأنعام، و٣/ ٦٧ النحل.و٣/ ٤٩٩ السجدة. و٤/ ٨٠-٨١ الزمر.

والذي أراه أن هذا الوجه من أسباب موهم الاختلاف يندرج ضمن الوجوه السابقة، فيمكن أن يقال: إن سبب التناقض المتوهم في المثال الأول: اختلاف الموضوع، بمعنى أن الطمأنينة في موضوع ذكر التوحيد والثواب، والوجل في موضوع ذكر العذاب والخوف من الضلال.

أما المثال الثاني فيمكن حمله على الحقيقة والمجاز، فيقال: إن توفي الله للناس على وجه الحقيقة، وتوفي الملائكة على وجه المجاز بمعنى القبض والنزع، وتوفي ملك الموت على وجه المجاز بمعنى الدعاء.

* * *

الفصل الثاني

أقسام موهم التناقض

ذكرت فيما سبق أن التناقض قد يتوهم بين الآية والآية، أو بين القراءة والقراءة في الآية نفسها، أو بين آية والحديث النبوي الشريف، أو بين آية والأحداث التاريخية الثابتة، أو بين آية والثابت من حكم العقل السليم. وسأبين فما يلي تفصيل هذه الأقسام.

المبحث الأول: موهم التناقض بين الآية والآية

بينت في أسباب توهم التناقض أمثلة على ذلك، وهنا أضيف ما يلي:

ما يتوهم من تناقض بين قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾(الصافات:٢٧) مع قوله: تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾(المؤمنون:١٠١). ظاهر الآية الأولى يدل على أن الناس يوم القيامة يتساءلون فيما بينهم، أما الثانية فيدل على امتناع ذلك. ولدفع هذا الوهم هنالك وجوه:

١. ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير قال: " قال رجل لابن عباس: أني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال: (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)... فقال: (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ) في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(الزمر:٦٨) فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة (أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ).[1] وهذا التوجيه مبني على أن يوم القيامة فيه أزمنة وأحوال مختلفة يتعارفون ويتساءلون في بعضها ويتحيرون في بعضها لشدة الفزع.

٢. روي عن ابن مسعود أن نفي المساءلة بمعنى نفي طلب بعضهم العفو من بعض، حيث قال: "يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رءوس الأولين والآخرين، قال: وينادي مناد: ألا إن هذا فلان ابن فلان، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه، قال: فتفرح المرأة يومئذ أن يكون لها حقّ على ابنها، أو على أبيها، أو على أخيها، أو على زوجها (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ).

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب تفسير سورة فصلت، رقم ٤٥٣٧، ٤ / ١٨١٥.

٣. وقيل: لا يتساءلون بنسب ولا برحم.

٤. وقيل: قوله تعالى: (لا يتساءلون) صفة للكفار، وذلك لشدة خوفهم أما قوله: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) فهي صفة لأهل الجنة.

٥. السؤال المثبت للتبكيت والتوبيخ والمنفي سؤال الاستفهام [1].

هذه الوجوه التي ذكرها المفسرون تعتمد على التوفيق بين الآيتين باعتبار اختلاف الزمان، كما في التوجيه الأول، وباعتبار اختلاف الحال كما في التوجيه الثاني، أما الثالث والرابع فباعتبار اختلاف موضوع السؤال، فالسؤال المنفي هو سؤال طلب العفو أو المنفعة، أما الخامس فباعتبار اختلاف المسؤول، فالتساؤل المثبت للمؤمنين والمنفي للكفار.

والذي يترجح لدي التوجيه الأول وهو ما ذهب إليه ابن عباس، أما الثاني فمحتمل، وأما الثالث والرابع فبعيدان عندي؛ لأنه حمل اللفظ الواحد على معنيين، والأَوْلى فيما أرى أن يحمل اللفظ في الموضعين على معنى واحد، ولا يصار إلى غير ذلك إلا بمانع من الحمل وقرينة، ومانع الحمل غير موجود لإمكان التوفيق بين الآيتين بوجه آخر مقبول. أما الخامس فأبعدها؛ لأن الفاعل في الآيتين يدل على العموم ولا دليل على التخصيص.

كيفية إزالة الخلاف المتوهم بين آيات القرآن الكريم

قلت فيما سبق إن أي خلاف بين آيات الله يؤدي إلى التناقض ليس حقيقيا بل متوهما، يزال بالتأمل ومعرفة وجوه التأويل والجمع والتوفيق بين النصوص، ومن هذه الوجوه ما ذكره الاسفراييني ونقله عنه الزركشي والسيوطي إذ قال: " إذا تعارضت الآي وتعذر فيها الترتيب والجمع طلب التاريخ وترك المتقدم منها بالمتأخر، ويكون ذلك نسخا له، وإن لم يوجد التاريخ وكان الإجماع على استعمال إحدى الآيتين، عُلم بإجماعهم أن الناسخ ما اجمعوا على العمل به (ثم قال:) ولا توجد في القرآن آيتان تَعْرَيان عن هذين الوصفين".[2]

من كلام الإسفراييني يمكن استنباط بعض وجوه التوفيق بين ما ظاهره التناقض،

---

(١) انظر الأقوال في جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٨، و الفخر الرازي في التفسير الكبير، ٨ / ٢٩٥.

(٢) البرهان الزركشي، ٢ / ١٧٩، والإتقان، السيوطي، ٣ / ٨٩.

وهذه الوجوه هي:

أولا: الجمع بين الآيتين بحمل كل واحدة على وجه، كحمل واحدة على موضوع والأخرى على موضوع آخر. كما ذكرت سابقا في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾(الأنعام:٢٣) مع قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾(النساء:٤٢) حيث حُملت كل آية على موضوع أو زمان أو حال غير ما حملت عليه الأخرى. أو حمل لفظ على الحقيقة وآخر على المجاز، كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:٢). أو حمل كل آية على مرحلة غير مرحلة الأخرى، كما حملنا آيات خلق آدم. أو باعتبار اختلاف جهتي الفعل كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(الأنفال:١٧). وهكذا في المواضع المشابهة. وهذا ما يسمى بزوال التناقض بانفكاك الجهة.

ثانيا: إن تعسر الجمع بين الآيات واستحكم التناقض من كل الجهات، ولم يمكن الجمع بينها بالحمل على الخصوص والعموم أو التقييد والإطلاق أو الحقيقة والمجاز ونحو ذلك من طرق الجمع، أو أي شيء مما ذكر الاسفراييني صير إلى القول بالنسخ.

* * *

المبحث الثاني: موهم التناقض بين قراءة وقراءة في آية واحدة

ذكرت في بيان معنى موهم التناقض أن منه ما يتوهم بين قراءات القرآن في آية من آياته. ولبحث هذا الموضوع لا بد من بيان ما يلي:

أقسام القراءات: تقسم القراءات إلى أقسام تعود في جملتها إلى قسمين رئيسين:

الأول: مقبولة.

الثاني: غير مقبولة.

وعليه فإن بحثي هذا يُعنى بقراءات القرآن المقبولة، وبطرق إزالة التناقض المتوهم بينها، أما غير المقبولة فالأمر فيها محسوم بترجيح القراءة المقبولة ورد الأخرى.

وقد اشترط العلماء لقبول القراءة شروطاً ثلاثة[1] هي:

١. صحة السند واختلفوا في شرط الصحة فاشترط بعضهم التواتر، واشترط بعض آخر الاستفاضة.

٢. موافقة العربية ولو بوجه.

٣. موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا.

وأي قراءة اختل فيها شرط من هذه الشروط مردودة، ولا تعويل على مخالفتها للقراءة المتواترة. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾(الروم: ١-٣). إذ يمكن توهم اختلاف بينها وبين قراءة أخرى هي: ﴿الٓمٓ ۝١ غَلَبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيُغۡلَبُونَ﴾[2].

فالقراءة الأولى تفيد أن الروم كانوا مغلوبين ثم غالبين، أما القراءة الثانية فالروم فيها كانوا غالبين ثم مغلوبين.[3] ومثل هذا الإشكال يسير سرعان ما يزول إذا تحققنا من صحة القراءات، وسنجد أن الثانية شاذة، والشاذة ليست قرآنا ولا يعول علي مخالفتها.

---

(١) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ١/ ٩.

(٢) مختصر في شواذ القراءات، لابن خالويه، ١١٧.

(٣) ذكر هذا الاعتراض جولد تسهر في مذاهب التفسير الإسلامي ص ٤.

وجوه اختلاف القراءات

أنواع الاختلاف بين القراءات مثل أنواع الاختلاف بين الآيات وأضيف هنا مع الأنواع أمثلة عليها من القراءات:

الأول: اختلاف تنوع.

الثاني: اختلاف تضادّ. وفيما يلي التفصيل.

أولا: اختلاف التنوع وهذا الاختلاف يقع على ثلاثة أحوال:[1]

١. اختلاف اللفظ والمعنى واحد. نحو الاختلاف بين قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)(الفاتحة:٦) على قراءة، وبين (اهْدِنَا السِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) على قراءة أخرى.[2] وهذا النوع ليس فيه ما يوهم التناقض.

٢. اختلاف اللفظ والمعنى معا، مع إمكان الجمع بين المعنيين في شيء واحد. نحو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾(البقرة:٢٥٩) على قراءة، وقوله: (كَيْفَ نَنْشُرُها) على قراءة أخرى[3]، فاللفظان مختلفان، والمعنيان مختلفان كذلك، لكن يمكن الجمع بينهما ؛ لأن النشز يعني رفع بعضها إلى بعض حتى تلتئم، والنشر الإحياء، وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى جمع لها هذين الأمرين: إذ رفع بعضها إلى بعض لتلتئم، وإحيائها بعد الممات، فذكر تعالى المعنيين في آية واحدة بالقراءتين تنبيها على قدرته.[4]

ومثاله كذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(البقرة:١٠) و﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بتشديد الذال[5]، والمراد من هاتين القراءتين التفصيل في وصف المنافقين بصفتين تفهمان من القراءتين معا، الأولى أنهم كانوا يَكذِبون في أخبارهم وهذه من قراءة التخفيف، والثانية أنهم كان يُكَذِّبون النبي فيما جاء به وهذه من قراءة التشديد.[6]

---

(١) الأحرف السبعة للداني ص ٤٧، النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١/ ٤٩–٥٠ .

(٢) السبعة في القراءات، لابن مجاهد ص ١٠٥. المبسوط، للأصبهاني، ٦٨. والنشر، لابن الجزري، ١/ ٤٩ .

(٣) السبعة في القراءات، لابن مجاهد ١٨٩. المبسوط، للأصبهاني، ص١٥١.

(٤) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه ص ٤٦.

(٥) السبعة في القراءات، لابن مجاهد ص١٤٣. المبسوط، للأصبهاني، ص١٢٧

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن طالب ١/ ٢٢٧.

٣. اختلاف اللفظ والمعنى معا مع عدم إمكان الجمع بينهما في شيء واحد، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾(المائدة:٦).
في ﴿ وأرجلكم ﴾ قراءتان بالنصب وبالجر[1]، والاختلاف في القراءتان من النوع الذي يختلف فيه اللفظ والمعنى معا، ولا يمكن الجمع بينهما في شيء واحد إذ القراءة الأولى تقتضي أن يكون حكم الرجلين الغسل؛ لأنها نصبت عطفا على المغسولات، والقراءة الثانية تقتضي أن حكم الرجلين المسح، لأنها جُرَّت عطفا على الرأس الممسوح، وفي الجمع بينهما أقول أقواها عندي أن المراد بقراءة النصب وجوب الغسل، والمراد بقراءة الخفض وجوب المسح، والغرض من اختلاف القراءتين بيان حكمين شرعيين هما: وجوب الغسل حال كون الرجلين حاسرتين، ووجوب المسح حال ارتداء الخفين. وسيأتي تفصيل ذلك في النماذج التطبيقية إن شاء الله.

النوع الثاني من الاختلاف: اختلاف التضاد وهو الاختلاف المؤدي إلى تضاد وتناقض في المعنى ولا سبيل للتوفيق، كأن تدعوا قراءة إلى أمر وأخرى إلى أمر آخر معارض. ومثله مناف لرتبة الإعجاز التي ثبت بالقطع واليقين اتصاف القرآن بها يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾(النساء:٨٢).

من خلال بيان أحوال اختلاف القراءات يمكن أن نستنتج قاعدة مهمة تعين على تحقيق موهم التناقض بين القراءات وإزالة الإشكال بينها، هذه القاعدة هي (الاختلاف بين القراءات اختلاف تنوع لا تضاد)، وفي ذلك يقول ابن الجزري: " حقيقة اختلاف هذه السبعة [2] المنصوص عليها من النبي اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض".[3]

قواعد في التعامل مع الآيات التي توهم قراءاتها التناقض

إذا تواردت قراءتان بينهما اختلاف فهنالك قواعد للتعامل معها، سأذكرها تاليا وامثل عليها:

١. لا بد أولا من التحقق من صحة القراءة المخالفة حسب الشروط الثلاثة التي

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد، ٢٤٢. المبسوط، للأصبهاني، ص ١٨٤. والنشر، لابن الجزري، ٢/ ٢٤٥.

(٢) هذه القاعدة تنطبق على الاختلاف بين جميع القراءات المتواترة وليس على السبع فقط .

(٣) النشر، لابن الجزري، ١/٤٩ .

ذكرتها، فإن ثبت أنها قراءة مقبولة يصار إلى القواعد التالية للتعامل مع هذا الاختلاف. أما إن خالفت القراءة شرطا من هذه الشروط حكم بردها، وعليه فهي ليست قرآنا ولا يعول على مخالفتها. ومثال ذلك الاختلاف في قراءة قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ (الروم:٢-٣) فقد رددنا بناء عليه قراءة غَلَبت وسيُغلَبون.

٢. إذا ثبت أن القراءة صحيحة فينبغي القطع بقرآنيتها والتعامل معها على أنها آية من القرآن، فإن كان الخلاف بين القراءتين اختلافا في اللفظ دون المعنى فليس هنالك إشكال. ولا يعد ذلك من موهم التناقض؛ لأن موهم التناقض يتعلق بالمعنى. يقول الزركشي: " والقاعدة في هذا وأشباهه أن الألفاظ إذا اختلفت وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك اختلافا ".[١]

٣. أما إن كان الاختلاف في اللفظ والمعنى فالواجب إعمال القراءات جميعا لأنها كما بينت قرآن. وإعمال القراءات جميعا يكون بالجمع بينها نحو الجمع بين قراءتي (نُنْشِزها) و(نَنْشُرها).

وقد يُنَـزَّل تعدد القراءات منزلة تعدد الآيات، ويرجع في تفسيرها والتوفيق بين معانيها إلى القواعد العامة في التفسير وتأويل المشكل وإزالة التناقض المتوهم بين الآيات[٢]، نحو اعتبار الخصوص والعموم والإطلاق والتقييد والإجمال والبيان أو استقلال كل آية بحكم خاص.

أمثلة على موهم التناقض في القراءات

أولا: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (المائدة:٦).

قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص والكسائي ويعقوب (وأرجلكم) بالنصب. وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة وخلف

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٥٤.

(٢) ذكر بعض هذه الوجوه الزركشي في البرهان، ٢/ ٥٧-٥٩ .

بالجر [1]، وقرأ الحسن بالرفع [2]. والظاهر أن الاختلاف في القراءات من النوع الذي يختلف فيه اللفظ والمعنى معا. ولإزالة التناقض المتوهم لا بد من تطبيق القواعد التي ذكرتها لدراسة موهم التناقض في القراءات، أولها التحقق من صحة القراءات، وبذلك يثبت أن قراءتي النصب والخفض متواترتان، أما قراءة الرفع فهي شاذة. لذلك ينصرف النظر هنا إلى إزالة التناقض بين قراءتي النصب والخفض فقط.

معنى القراءتين والخلاف بينهما

على قراءة النصب تكون الأرجل معطوفة على الوجه واليدين والمرافق، والعامل الذي نصبها الأمر بالغسل، وعليه فالظاهر أن يكون الواجب في الرجلين الغسل.

وعلى قراءة الجر تكون الأرجل معطوفة على الرؤوس والعامل الأمر بالمسح، وعليه فالظاهر أن يكون الواجب في الرجلين المسح.

والظاهر أن هذين المعنيين مختلفان فما الواجب الغسل أم المسح ؟ ولإزالة هذا التناقض المتوهم ذكر العلماء في القراءتين أقوالا تعود في جملتها إلى ما يلي:

الأول: أن الواجب في الرجلين الغسل وهو رأي الجمهور، واستدلوا على ذلك بقراءة النصب وبالنصوص الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم [3]. وتوجيه قراءة الخفض على هذا الرأي على وجوه وهي:

1. العطف على الرؤوس عطف للفظ دون المعنى، أما في المعنى فالعطف على المغسولات، وقد ادخل الرأس بين المغسولات للمحافظة على الترتيب [4]. وقيل: إن مجيء قراءة الخفض لفظا مع إعادة المعنى إلى قراءة النصب للتنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليهما عند غسلهما، وكأن غسلهما يكون بمقدار قليل من الماء يشبه ما يكفي للمسح.[5] وهذا فيما أرى بعيد لأنه خلاف الأصل في العطف.
2. عطف الأرجل على الرؤوس عطف لفظ ومعنى، ولكن المسح قد يأتي بمعنى

---

(1) السبعة في القراءات، لابن مجاهد، ٢٤٢، والنشر، لابن الجزري، ٢/ ٢٤٥.

(2) مختصر شواذ القراءات، لابن خالويه، ٣٧. وانظر القراءات الشاذة وتوجيهها لعبد الفتاح القاضي ص ٤٢.

(3) انظر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٩٣ ، وابن الجزري، في النشر، ٢٧/١.

(4) أضواء البيان، للشنقيطي، ٢/ ٨.

(5) الكشاف للزمخشري، ٦١١/١، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ص ١١٧.

الغسل، فالعرب تطلق المسح على الغسل، وعليه يكون المسح على الرأس على معناه الأصلي والمسح على الأرجل على معنى الغسل.[1] وهذا فيما أرى بعيد كسابقه؛ لأن الأصل أن يفهم المعنى على المشهور في اللغة إلا إذا امتنع الحمل ووجدت قرينة على المعنى الآخر وهذا غير متوفر هنا.

٣. المراد عدم الاكتفاء بمجرد الغسل، بل لا بد من الدلك باليد. يقول الطبري: " والصواب عندنا أن الله عز وجل ذكره أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم، وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقا اسم ماسح غاسل، لأن غسلهما: إمرار الماء عليهما أو أصابتهما بالماء، ومسحهما: إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو (غاسل ماسح) ".[2]

٤. المراد بقراءة النصب وجوب الغسل، والمراد بقراءة الخفض وجوب المسح، والغرض من اختلاف القراءتين بيان حكمين شرعيين هما: وجوب الغسل حال كون الرجلين حاسرتين، ووجوب المسح حال ارتداء الخفين، يقول الشافعي: " فاحتمل أمر الله تبارك وتعالى بغسل القدمين أن يكون على كل متوضئ، واحتمل أن يكون على بعض المتوضئين دون بعض، فدل مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخفين أنهما على من لا خفين عليه ".[3] وعلى هذا فإن كل قراءة من القراءتين تعامل معاملة الآية المستقلة.

الثاني: أن الحكم على التخيير بين الغسل والمسح، وهذا من باب إعمال القراءتين، وقد نسب بعض العلماء[4] هذا القول للطبري غير أن ابن كثير حقق قول الطبري ورجح أن يكون مذهبه إيجاب الغسل كما ذكرت عنه سابقا. يقول ابن كثير: " إن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء، لأنهما

---

(١) القرطبي ٦ /٩٤، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن طالب، ٤٠٦/١ .

(٢) جامع البيان، الطبري، ٤ /٤٧١ .

(٣) أحكام القرآن للشافعي، ص٥٠، ونحوه في أحكام القرآن، لابن العربي ٢ /٥٧٨.

(٤) ممن نسبه للطبري ابن العربي في أحكام القرآن، ٢ /٥٧٧.

يليان الأرض والطين وغير ذلك... ولكنه عبر عن الدلك بالمسح... - ثم يقول ابن كثير - ثم تأملت كلامه أيضا فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله تعالى: (وأرجلكم) خفضا على المسح وهو الدلك، ونصبا على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه".[1] أي أن الطبري يقصد بالمسح الدلك أثناء الغسل وهو وجه من وجوه التوفيق بين القراءتين.

والذي يترجح لدي أن الواجب في الرجلين الغسل؛ لتظافر الأدلة القاطعة على ذلك، أما قراءة الخفض فهي خاصة بحال لبس الخفيف وقد ثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمسح إلا لابسا خفيه.

هذه وجوه في الجمع بين القراءتين بما يزيل التناقض المتوهم، ولكل توجيهٍ أدلته، ولست الآن بصدد التفصيل وذكر الأدلة والترجيح؛ لأن القصد من هذا المثال ليس تحرير المسألة فقهيا بل بيان وجوه التوفيق بين القراءات التي توهم تعارضا.

ثانيا: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢).

القراءات:

الأولى: (يَطْهُرن) بتخفيف الطاء وضم الهاء وهي قراءة الجمهور.

الثانية: (يَطَّهَّرْن) بتشديد الطاء والهاء وفتحها وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وهما قراءتان متواتران.[2]

معنى القراءتين والخلاف بينهما

اختلفت القراءتان في بيان غاية حل إتيان النساء بعد الحيض على النحو الآتي.

١. تفيد القراءة الأولى أن غاية حل إتيان النساء بعد الحيض تكون بانقطاع دم الحيض.

٢. تفيد القراءة الثانية أن غاية حل إتيان النساء بعد الحيض تكون بانقطاع

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٠/٢.

(٢) السبعة في القراءات، لابن مجاهد، ص ١٨٢، والنشر، لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

الحيض ثم التطهر بالاغتسال.

وعليه فإن القراءتين توهم تعارضا في الحكم، ولإزالة هذا التناقض ذهب العلماء مذاهب منها:

الأول: حمل القراءتين على أن الغاية انقطاع دم الحيض، وعليه فإن قراءة التشديد تفيد انقطاع دم الحيض مثل قراءة التخفيف، أو حمل قراءة التخفيف على انقطاع الدم لأقل الحيض والتشديد على انقطاعه لأكثره.[1]

الثاني: حمل القراءتين على أن الغاية الاغتسال، وقراءة التشديد تفيد ذلك بلا إشكال، أما قراءة التخفيف فهي بمعنى يتطَهّرن أي يغتسلن[2]، أو أن يكون معنى يَطْهرْنَ انقطاع الدم، أما الاغتسال فمشروط بقوله تعالى: (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ) بالتشديد بإجماع القراء[3] وهي تدل على أن هنالك طهارة أخرى معملة هي الاغتسال.

قلت: وهذا الذي أرجحه وهو أن الغاية الاغتسال بدلالة قوله تعالى:(فَإِذَا تَطَهَّرْنَ) بعد قوله تعالى (حتى يَطْهُرن) على القراءة الأولى، وبدلالة تشديد (يَطَّهَّرْن) على القراءة الثانية وهو ما ذهب إليه الجمهور.

يقول الشوكاني:".. إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان، إحداهما: انقطاع الدم، والأخرى التطهر منه. والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى. فيجب المصير إليها وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتبرة قوله: تعالى (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ). فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم. وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين ".[4] وهذه قاعدة من قواعد الجمع بين القراءتين.

* * *

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٢٢ .

(٢) الطبري، ٢/٤٦٢.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن طالب، ١/ ٢٣٩.

(٤) فتح القدير،، الشوكاني، ١/ ٢٠٠.

المبحث الثالث:موهم التناقض بين القرآن والحديث النبوي

وحي الله نوعان: وحي باللفظ والمعنى، ووحي بالمعنى. الأول هو القرآن الكريم، والثاني هو الحديث النبوي الشريف، يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(النجم:٣-٤). وكما لا يجوز أن يقع التناقض بين الوحي المتلو لفظا ومعنى، كذلك لا يجوز أن يقع بين الوحي المتلو لفظا والوحي المنزل بالمعنى، وبعبارة أخرى لا يجوز أن يقع التناقض بين الآية والحديث، لأن مصدرهما واحد هو الله سبحانه وتعالى المنزه عن كل نقص.

وعليه فإن ما يظهر من تعارض بين آية وحديث صحيح إنما هو وهم لا حقيقة له، وهذا الوهم يزال بالنظر والتأمل ومعرفة وجوه التوفيق والتأويل، وفيما يلي مثالان.

المثال الأول: يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(الأعراف:٤٣) يدل ظاهر الآية على أن الإنسان يدخل الجنة جزاء عمله الذي كان يعمله في الدنيا. والظاهر أن هذا المعنى لا يتفق مع قوله صلى الله عليه وسلم: " سددوا وقاربوا فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني برحمة منه وفضل ".[1] الذي يدل على أن الإنسان يدخل الجنة برحمة الله لا بعمله. وهذا ما ذهب إليه الإمام مسلم عندما سمّى باب هذا الحديث: " باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ".[2]

الظاهر يوهم أن الآية والحديث متناقضان، لذلك لا بد من النظر والتأمل في الآية والحديث لمعرفة وجوه التأويل التي يرتفع بها هذا التناقض المتوهم.

تجدر الإشارة إلى أن الحديث ينفي باللفظ الصريح أن يكون العمل وحده سببا لدخول الجنة، ويثبت كذلك أن دخول الجنة إنما يكون برحمة الله، يؤكد ذلك أن

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، بابا القصد والمداومة على العمل،حديث رقم ٦٤٦٤ انظر فتح الباري ١١/ ٣٠٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله. انظر النووي ٧/ ١٥٦.

الصحابة أشكل عليهم الأمر عندما قاسوه على النبي صلى الله عليه وسلم بشكل خاص فسألوه: " ولا أنت يا رسول الله ؟" فكانت إجابته صلى الله عليه وسلم واضحة صريحة " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ". فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم على رفعة قدره وعِظَم عمله لا يدخل الجنة بعمله بل برحمة الله، فكل الخلق بعده أقل عملا وأحوج لرحمة الله منه صلى الله عليه وسلم، فإذا كان الأمر كذلك فما تأويل قوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:٤٣) ذهب العلماء في ذلك إلى تأويلات مختلفة أشهرها:

١. دخول الجنة بالعمل، ولكن التوفيق للعمل إنما يكون برحمة من الله، فمن رحمه الله وفقه للعمل فدخل الجنة، وعليه فإن السبب الأول لدخول الجنة إنما هو رحمة الله.

٢. ذهب فريق آخر إلى نحو ما سبق، ولكنهم قالوا: إن دخول الجنة بالعمل، لكنّ قبول العمل إنما هو برحمة من الله، وعليه فإن السبب الأول لدخول الجنة هو رحمة الله؛ لأن العبد يعمل ولكن عمله لا يقبل إلا رحمة من الله. ذهب إلى هذا القول ابن حجر حيث قال: "يُحمل الحديث على أن العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولا، وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣٢) أي تعملون من العمل المقبول".[١]

وقد جمع الإمام النووي بين القول الأول والثاني فقال: "إنّ دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الحديث، ويصح أنه دخل بالأعمال، أي بسببها وهي من الرحمة والله أعلم".[٢]

٣. دخول الجنة برحمة الله لا بالعمل، لأن العبد مهما عمل فإن عمله بالنسبة لأجر الله يسير، فجزاء الإنسان جزاء لا ينفد مقابل عمله الذي ينفد.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ١١/ ٣٠٢.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، ٧/ ١٥٩.

٤. عمل العبد لربه واجب عليه مقابل خلقه والإنعام عليه، ولا يستحق مقابل ذلك جزاء لازما. فإن جازاه الله فإنما ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى.[1]

وعليه قال: بعض العلماء: الباء في الآية للإلصاق أو المصاحبة أي أورثتموها ملابسة أو مصاحبة لما كنتم تعملون، وذهب فريق آخر إلى أنها للمقابلة وهي الداخلة على الأعواض؛ لأن المعطي بعوض قد يعطي مجانا. أما الباء في الحديث فهي للسببية أي يدخل الإنسان الجنة بسبب رحمة الله وبدون رحمته لا يدخلها، لأن المسبب يوجد بسبب وينتفي بانتفاء السبب. ذكر ابن هشام في مغني اللبيب أن الباء للمقابلة، وهي الداخلة على الأعواض، نحو اشتريته بألف... ومنه ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وإنما لم نقدرها باء السببية كما قالت المعتزلة وكما قال الجميع في "لن يدخل أحدكم الجنة بعمله" لأن المعطي بعوض قد يعطي مجانا، وأما المسبب فلا يوجد بدون سبب، وقد تبين أنه لا تعارض بين الحديث والآية، لاختلاف محملي الباءين جمعا بين الأدلة[2].

٥. دخول الجنة برحمة الله واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال[3]، واستدل أصحاب هذا القول بما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم".[4] وكأن الحديث خطاب لمن لم يدخل الجنة بعد، فيقال له: إنما تدخل الجنة برحمة الله، أما الآية فهي خطاب لمن دخلوا الجنة وقُسِم لهم من درجاتها ما شاء لهم الله، فيقال لهم: إنما هذه المنازل التي حللتم بها وتفاضلتم بها على بعضكم عل بعض بعملكم، وعلى هذا القول تكون الباء في الآية والحديث للسببية أي بسبب رحمة الله دخلتم الجنة وبسبب أعمالكم تقاسمتم منازلها.

---

(١) ذكر الأقوال ابن الجوزي في زاد المسير ٤٩٦ وذكر ابن حجر أقوالا كثيرة أهمها ما ذكرت، انظر فتح الباري ١١/ ٣٠١– ٣٠٢.

(٢) مغني اللبيب، ابن هشام، ١/ ١٢١– ١٢٢.

(٣) رجحه الرازي في الأنموذج الجليل ص ١٥٠، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٥٥. و ذكره الزركشي في البرهان، ٢/ ١٩٤.

(٤) رواه الترمذي، في السنن، كتاب صفة الجنة باب ما جاء في سوق الجنة الحديث ٢٥٥٤ ص ٧٢٣ وقال: الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

والذي يترجح لي هو القول الخامس: ويرجحه ما روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ".

ويؤيده أن سياق الآيات التي ذُكر فيها أن دخول الجنة بالعمل جاء عقب آيات ذكرت منازل الجنة ودرجاتها، وخاطبت ساكنيها بأنهم إنما حلوا هذه الدرجات بأعمالهم لقوله تعالى: (أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، وقوله: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). فالسياق دال على أن هذا النداء يكون بعد دخولها، والتبوء من غرف قصورها، " والآية صريحة في كون الجنة تنال بالعمل وفي معناها آيات كثيرة بباء السببية بعضها بلفظ الإرث وبعضها بلفظ الدخول، وأما حديث أبي هريرة فمعناه أن عمل الإنسان مهما يكن عظيما لا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله، إذ جعل الجزاء العظيم على هذا العمل القليل، فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل الله لذلك قال: بعده فسددوا وقاربوا أي لا تبالغوا ولا تُغالوا في دينكم ولا تتكلفوا من العمل ما لا تطيقون. وقيل: معناه يدخلونها بفضله ويقتسمونها بأعمالهم ".[1]

كما أن هذا القول لا يلغي كثيرا من الأقوال في التوفيق بين الآية والحديث، فيمكن أن يقال: أن دخول الجنة برحمة الله لأن العبد مهما عمل فعمله منتهي أما جزاء الله فليس منتهيا، ولا يمكن أن يكون العمل المنتهي مكافأ لجزاء غير منتهي، وهذا هو ذات القول الثالث، وكذلك في الرابع يقال: إن عمل العبد واجب عليه مقابل خلق الله له وهدايته والإنعام عليه ولا يستحق الجنة جزاءً لازما على عمله، فإذا كان ذلك كذلك كان دخول الجنة برحمة الله ثم يكون التفاضل في الجنة بالعمل، ليكون ذلك حافزا للناس على الجد والاجتهاد لنيل درجات أعلى، لأن التساوي بين الناس في الجزاء يوم القيامة يقعد الإنسان عن العمل ويقتل روح المنافسة.

أما القول الأول والثاني فلست مطمئنا لهما لأنهما لا يزيلا التناقض المتوهم بين الآية والحديث لأن الإنسان إن عمل وكان عمله توفيقا من الله وقبوله كذلك منه نحو ما قال الإمام النووي فهذا لا يلغي أن يكون العمل في المحصلة منه، ولا ينفي أن يكون دخوله الجنة بعمله. ولا يمنع أن يكون العمل سببا لدخول الجنة وإن كان سببا ثانيا والأول هو

---

(١) المنار، محمد رشيد رضا، ٨ / ٣٧٣- ٣٧٤.

رحمة الله.

ثم قد تثار على هذا القول شبهة الجبرية بأن يقال: إن الذي يرحمه الله يوفقه للعمل ويقبله منه فيدخله الجنة، والذي لا يرحمه الله لا يوفقه للعمل ولا يدخله الجنة، فلا يكون الإنسان حرا مختارا بل رحمة الله متسلطة عليه توفقه للعمل وتقبله منه أو لا توفقه للعمل ولا تقبله منه، لذلك يرى المعتزلة أن دخول الجنة بالعمل لا بالتفضل، قال: الزمخشري ما نصه: (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون) "بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطلة".[1]

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (النمل:٨٠) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾(فاطر:٢٢) مع قوله صلى الله عليه وسلم لمن أمر بإلقائهم في بئر القليب من قتلى المشركين عقب غزوة بدر: "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فقيل: له تدعو أمواتا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون".[2]

الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويفهم من ظاهرها أن ليس بإمكانه إسماع الموتى، أما الحديث ففيه نص صريح على أن الموتى يسمعون قوله مثل الأحياء ولكنهم لا يجيبون. وقد ذهب العلماء في التوفيق بين الآية والحديث إلى أقوال ذكرها ابن حجر عند شرحه هذا الحديث،[3] وهذه الأقوال هي:

١. الموتى لا يسمعون إلا بمشيئة الله.
٢. الله أحياهم حتى سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم توبيخا ونقمة.
٣. السماع المنفي في الآية هو السماع الحقيقي، أما المثبت في الحديث فهو بمعنى العلم.

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/١٠٦ وذكر ابن المنير صاحب الإنصاف: ". يريد بالمبطلة أهل السنة القائلين بدخول الجنة بالتفضل واقتسامها بالأعمال انظر الحاشية على الكشاف ٢/ ١٠٦ ونسبة هذا القول إلى أهل السنة دون غيره تعوزه الدقة لأنهم كما ذكرنا قالوا فيه أقوالا أخرى.

(٢) صحيح البخاري،كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم ٣٩٧٦. وانظر فتح الباري ٧/ ٣٥٠-٣٥١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٣٥٤-٣٥٥.

٤. المقصود (بالموتى) و (من في القبور) الكفار مجازا، والمعنى أنك لا تسمع الكفار فحالهم حال الموتى أو من سكن القبور[1]. وعليه فإن نفي السماع في الآية كنفيه في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(الزخرف:٤٠) بمعنى أنك لا تُسمع الكفار فتهديهم بل ذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

٥. السماع المنفي في الآية هو السماع الذي ينفع، بمعنى أنك لا تسمعهم بعد أن ماتوا سماعا ينتفعون به ويؤجرون، لأن الأجل فاتهم وفرصتهم في العمل انقطعت.

باستعراض هذه الأقوال السابقه أجد أن أصحابها ذهبوا في التوفيق بين الآية والحديث مذهبين:

الأول: حمل الآية على ظاهرها ونفي السماع الحقيقي عن الأموات، أما السماع المثبت في الحديث فهو ليس السماع الحقيقي الذي يسمعه الناس في العادة، ولكن أصحاب هذا المذهب اختلفوا في تأويل السماع في الحديث فقال بعضهم: إن سماعهم ليس حقيقيا بل أسمعهم الله على غير العادة بمشيئته، وقال آخرون: إن الله أحياهم فأسمعهم على غير العادة. وقال فريق ثالث: إن السماع المثبت لهم في الحديث بمعنى العلم وليس بمعنى السماع العادي.

الثاني: حمل أصحاب هذا المذهب الحديث على ظاهره واثبتوا سماع الموتى لقول النبي عليه السلام وأوّلوا نفي السماع في الآية فقال بعضهم: ليس المقصود نفي السماع عن الموتى حقيقة بل عن الموتى مجازا وهم الكفار، وعليه فإن نفي السماع في الآية مثل نفي السماع في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(الزخرف:٤٠) وقال آخرون: إن السماع المنفي في الآية ليس السماع الحقيقي بل السماع بمعنى الاستجابة والانتفاع بالمسموع، وعلى هذين القولين يكون أهل القليب قد سمعوا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رجحه الطبري، ٢٢/ ١٥٢-١٥٣. وابن الجوزي، ص ١٠٥٣.

مناقشة الأقوال

القولان الأول والثاني قريبان ومؤداهما أن الله أسمعهم على غير العادة، لكني أراهما بعيدين؛ لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم صريح في إثبات صفة السمع لهم، ولو كان السماع المثبت هو سماع غير عادي لكانت تلك معجزة، ولأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، ثم إن **القول** بأنهم سمعوا بمشيئة الله أو أن الله أسمعهم خبر يحتاج إلى دليل ولا دليل.

أما **القول الثالث** فمؤداه أن الموتى لا يسمعون وأن أهل القليب لم يسمعوا النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم علموا أن ما بلّغهم به هو الحق، وقد نقله ابن حجر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت لما ذُكر لها حديث ابن عمر: إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنهم ليعلمون الآن ما كنت أقول لهم ". وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ (النمل:٨٠)﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾(فاطر:٢٢).[١]

غير أن ابن حجر رحمه الله لم يسلم للاستدلال بهذا الحديث حيث قال: " ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكر بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة"، وفيه " ما أنتم بأسمع لما أقول: منهم "، وأخرجه أحمد بإسناد حسن، فإن كان محفوظا فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة "[٢]، وهذه الرواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تعارض الرواية السابقة.

والذي يترجح لدي الاستدلال بالرواية الثانية التي وافقت فيها ما رواه أبو طلحة وغيره من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، لكون هؤلاء شهدوا حادثة القليب بينما عائشة رضي الله عنها لم تشهدها كما ذكر ابن حجر، فلما سمعت منهم الرواية المشهورة رجعت عن روايتها التي فيها " إنهم ليعلمون"، وذهبت إلى ما ذهبوا إليه فروت "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ".

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، انظر فتح الباري، ابن حجر، ٧ /٣٥١ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، انظر فتح الباري، ابن حجر. ٧ / ٣٥١.

ثم لو كان معنى السماع: العلم لما أشكل الأمر ولما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: "تدعوا أمواتا؟" لأنهم لا يستغربون علم الميت في القبر بل ذلك معروف من حديث البراء بن عازب المشهور في عذاب القبر وفيه: "أن الميت عندما ينزل القبر يرى منزله من الجنة".[1] وإنما الذي يستغربونه السماع المنفي عنهم مما فهموه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾(النمل:٨٠).

بقي القول الرابع والخامس، ففيهما يحمل الحديث على الظاهر وهو سماع موتى القليب سؤال النبي، أما الآية فتؤول. لكن أصحاب القولين يختلفان في وجه التأويل فعلى القول الرابع يحمل الموتى ومن في القبور على معنى مجازي هو الكفار، وعلى القول الخامس يحمل السماع على معنى فهم المسموع والاستجابة والانتفاع به، وهذا من ضمن المعاني التي يحتملها لفظ السماع، يقول الراغب في بيان معنى السمع: "يعبر تارة بالسمع... عن الفهم وتارة عن الطاعة تقول اسمع ما أقول ولم تسمع ما قلت وتعني تفهم، قال تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قالوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا)، وقوله: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) أي فهمنا قولك ولم نأتمر لك، وكذلك قوله: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي فهمنا وارتسمنا... قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾(الأنفال:٢٣) أي أفهمهم بأن جعل لهم قوة يفهمون بها "[2]. غير أن كلا القولين محتملان عندي وأقواهما الأخير وهو قول الجمهور وعليه فلا تعارض بين القرآن والحديث وما يظهر من تعارض توهم يزال بالنظر والتأمل.

* * *

---

(١) انظر رواية الحاكم في المستدرك، ٩٣/١، وقد صححها الذهبي، ٩٦/١ ، وانظر فتح الباري، ابن حجر، ٢٨٦/٣.

(٢) المفردات، الراغب، ٢٤٨– ٢٤٩.

المبحث الرابع: موهم التناقض بين القرآن والحوادث التاريخية الثابتة:

بما أن القرآن خبر صادق فلا يجوز أن يعارض غيره من الأخبار الثابتة. فإن ظهر تناقض فهو متوهم يُسلك لرفعه مسلك فهم القرآن فهما صحيحا، أو التحقق مما وقع والوجه الذي وقع عليه.

ومما يوهم التناقض من هذا النوع ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (مريم: ٢٨) حكاية عن قوم مريم عليها السلام عندما رجعت إليهم ومعها عيسى عليه السلام، ومحل الخلاف أن قوله تعالى: (يَا أُخْتَ هَارُونَ) (مريم: ٢٨) يوهم أن مريم عليها السلام أخت هارون أخي موسى عليهما السلام، وهذا معارض للثابت في التاريخ من أن مريم لا يمكن أن تكون أخت هارون وموسى؛ لأن الزمن بينهما بعيد.

وقد أكد هذا الخبر التاريخي كعب رضي الله عنه حيث قال إن قوله تعالى: يا أخت هارون ليس بهارون أخي موسى، غير أن عائشة رضي الله عنها اعترضت عليه فقالت له: كذبت، وحملت الآية على أن هارون أخا مريم عليها السلام هو أخو موسى عليه السلام، وهذا وجه من وجوه رفع التناقض المتوهم، وهو لا يعدو أن يكون اجتهادا منها وهو رأي مروي في رفع التناقض المتوهم بين الآية والخبر التاريخي الثابت. ولكنه رأي ضعيف كما سأبين وقد رد عليها كعب رضي الله عنه فقال: "يا أم المؤمنين، إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قاله فهو أعلم وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما ست مائة سنة. قال: فسكتت".[1]

وقد ذكر المفسرون في التوفيق بين الآية وهذا النقل التاريخي الثابت عدة أقوال [2] أجملها الطبري فيما يلي:

1. نسبت إلى رجل من قومها اسمه هارون نسبة منهم لها إلى الصلاح؛ لأنهم كانوا يسمون أهل الصلاح فيهم هارون.
2. نسبت لهارون أخي موسى؛ لأنها من ولده كما يقال: للتميمي: يا أخا تميم.
3. كان ذلك رجلا فاسقا معلن الفسق فنسبوها إليه اتهاما لها بالسوء.

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٩٢، ولم أقف على هذه الرواية في كتب السنن.

(٢) انظر جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٩٢ . وزاد المسير، ابن الجوزي، ص ٨٤٤ .

٤. كان أخوها من أبيها يدعى هارون، وكان من أفضل بني إسرائيل.
٥. هي أخت هارون لأبيه وأمه وهي أخت موسى أخي هارون.
٦. هي أخت هارون أخي موسى والمقصود من نسبتها إليه تشبيها لها به، أي يا من كنا نظنها مثل هارون في العبادة.

المناقشة والترجيح

هذه الأقوال في جملتها ترد إلى أحد احتمالين:

الاحتمال الأول: أن مريم أخت هارون حقيقة وعلى هذا الاحتمال يرد القولان التاليان:

١. أنها أخت هارون وهو رجل صالح من بني إسرائيل، وتسميته بهذا الاسم تيمنا بهارون أخي موسى عليهما السلام، ويؤيد هذا القول ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة قال: " بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾(الشعراء:١٣) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ".[١]

٢. أنها أخت هارون أخي موسى عليهم جميعا الصلاة والسلام، وهو قول مردود ومخالف للتاريخ لوجود فترة زمنية طويلة بينهما قال الزمخشري [٢]: " كان بينهما ألف سنة أو أكثر ". ويؤيد الزمخشريَ ابنُ كثير فيقول: " هذا القول خطأ محض "[٣]. قلت: يؤكد رد هذا الاحتمال ما رواه مسلم عن المغيرة رضي الله عنه السابق الذكر فلو كانت مريم أخت هارون أخي موسى لرَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاعتراض بإثبات أنها أخت هارون عليهما السلام، ولكن إجابته صلى الله عليه وسلم توحي بتسليمه بالاعتراض وتوجيه الآية على نحو آخر.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، انظر النووي ٤ / ٣٤٣.

(٢) الزمخشري، ٣ / ١٤.

(٣) ابن كثير، ٣ / ١٣٢.

الاحتمال الثاني: أنها ليست أخت هارون حقيقة وعلى هذا الاحتمال ترد الأقوال التالية:

١. أن هارون رجل صالح من قومها نسبت إليه نسبة لها إلى الصلاح لأن أهل الصلاح فيهم كانوا يسمون هارون تيمنا بهارون أخي موسى. وهذا القول قوي يؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم عن المغيرة " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم ". وهذا ما اعتمد عليه الطبري عندما رجح هذا القول حيث قال: " والصواب عندي في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه وأنها نسبت إلى رجل من قومها".[1]

٢. أن هارون هو أخو موسى وقد نسبت إليه تشبيها لها به ونسبة لها إلى الصلاح، وفائدة هذه التسمية مثل الفائدة في القول السابق، غير أن الحديث الصحيح يؤيد القول السابق. حيث قال صلى الله عليه وسلم: "كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم ". ولم يقل: كانوا ينسبون إلى أنبيائهم.

٣. أن هارون هو أخو موسى، وقد نسبت إليه لأنها من ولده غير أن هذا القول يحتاج إلى دليل تاريخي، ولم يذكر أصحاب هذا القول أي دليل على ما ذهبوا إليه.

٤. أن هارون رجل فاسق نسبوها إليه توبيخا لها وهذا القول مردود، لأنهم كانوا يسمون الصالحين منهم بهذا الاسم لا الفاسقين، ويؤيد ذلك قوله عليه السلام: " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم ". يقول القرطبي: " وهذا القول يرده الحديث الصحيح وهو نص صريح فلا كلام معه ".[2]

والذي يترجح لي أن هارون رجل صالح سمي بهذا الاسم نسبة له إلى الصلاح، ونسبت مريم عليها السلام إليه نسبة لها إلى الصلاح، وقد يكون هارون هذا أخاها وقد لا يكون، غير أني أميل إلى حمل اللفظ على الحقيقة، والمعنى المشهور في اللغة وفي العرف أنه أخوها حقيقة. وعليه فلا تعارض بين الآية والثابت من النقل.

---

(١) الطبري. ١٦/ ٩٣.

(٢) القرطبي. ١١/ ١٠٧.

المبحث الخامس: موهم التناقض بين القرآن العقل الذي يسير وفق الشرع

القرآن كلام الله والعقل خلقه، ومن المحال أن يتعارض كلام الله مع العقل إذا سار العقل سيرا صحيحا موافقا للشرع وهو الذي سماه ابن تيمية العقل الصريح، وهذا ما ذهب إليه علماء المسلمين ومنهم ابن تيمية حيث يرى أن العقل الصريح الذي يقوم على أصول سليمة لا يخالف الوحي الصحيح، وإن خالفه فإما أن يكون العقل باطلاً أو مجرد شبهات، أو أن يكون الوحي ضعيفاً أو خفي الدلالة يحتاج إلى تأويل. يقول رحمه الله: " وقد تأملت في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع،... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالف سمعاً قط. بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟"[1]

أمثلة على ما يتوهم من تناقض بين القرآن والعقل الذي يسير وفق الشرع

المثال الأول: هنالك مجموعة من الآيات أثبتت خلقا لغير الله هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:١٧) حيث نسب للكفار خلقا، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾(المائدة:١١٠) حيث نسب الخلق لنبي الله (عيسى) عليه السلام وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٤) حيث يفهم من صيغة التفضيل وجود أكثر من خالق والله أحسنهم. وقد يتوهم أن هذه الآيات تناقض قوله تعالى﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(الزمر:٦٢)، وهذا من التعارض بين الآيات تلك وهذه الآية.

غير أنا نستشف نوعا آخر من أنواع التعارض هو ما قد يتوهم بين تلك الآيات وما

---

(١) درء تعارض العقل والنقل. ابن تيمية. جـ١. ص ١٤٧.

يوجبه دليل العقل السليم الذي يسير وفق الشرع، والذي يمنع كذلك تعدد الخالقين. ولذلك رأيت أن أضع هذا المثال هنا كنموذج على نوعين من أنواع موهم التناقص.

وفي رفع هذا التناقض وجوه منها:

أولا: تأويل الخلق في الآيات الثلاث بمعنى آخر غير معناه في قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)، وهنا يفيدنا حصر معاني الخلق كما جاء عند علماء اللغة، وقد جمعها الراغب[1] فيما يلي:

1. إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء نحو قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ).
2. إيجاد الشيء من عدم نحو (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ).

وهذان المعنيان لا يوصف بهما إلا الله، يقول الراغب: " وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، فتبارك الله أحسن الخالقين ".[2]

3. التقدير وهذا يمكن أن يوصف به غير الله، يقول الراغب: " فإن قيل: قوله تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) يدل على أنه يصح أن يوصف غيره بالخلق، وقيل: معناه أحسن المقدرين ".[3] ويذكر الألوسي أنه لا يصح تفسير الخلق بالإيجاد إذ لا خالق بذلك المعنى إلا الله، إلا أن يكون على الفرض والتقدير، والمعتزلة يفسرون الخلق بالإيجاد من عدم لاعتقادهم بأن العبد خالق لأفعاله وموجد لها استقلالا فالخالق الموجد عندهم متعدد عندهم.[4] ومعتقدهم هذا باطل إذ ليس العبد خالقا لأفعاله، وعليه يحمل الخلق هنا على معنى التقدير، قال أبو حيان: (الْخَالِقِينَ) المقدرين وهو وصف يطلق على غير الله تعالى،[5] وقال الشنقيطي العرب تطلق الخلق وتريد التقدير.[6] ويمكن حمل الخلق على معنى

---

(1) المفردات، الراغب، ١٦٣- ١٦٤.

(2) المفردات، الراغب، ١٦٤.

(3) ذكره الراغب ص١٦٤، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٧٨.

(4) الألوسي، ١٨/ ٢٩٧.

(5) البحر المحيط، لأبي حيان، ٧/ ٥٥٢، طبعة دار الفكر، تحقيق صدقي محمد جميل، بيروت، ١٤٢٠هـ.

(6) أضواء البيان، الشنقيطي، ٥/ ٣٢٥، طبعة دار الفكر، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، بيروت.

آخر هو الإحالة وهذا المعنى الرابع الذي ذكره الراغب وهو:

٤. إحالة الشيء من وجه إلى آخر، يقول الراغب: " أما الخلق بمعنى الاستحالة فقد جعله الله لغيره في بعض الأحوال".[١]

٥. الكذب نحو قوله تعالى: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً).

وبواحدة من هذه المعاني الثلاثة الأخيرة يندفع التناقض بين الآيات التي توهم وجود خالقين غير الله وبين قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) من جهة. وبينها وبين دليل العقل الذي يستلزم أن لا خالق غير الله من جهة أخرى، يقول الزركشي بعد أن ذكر هذا المثال: " لقيام الدليل العقلي أنه لا خالق غير الله تعالى، فيتعين تأويل ما عارضه، فيؤل قوله: (وَتَخْلُقُونَ) بمعنى تكذبون لأن الإفك نوع من الكذب، وقوله: (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ) أي تصور".[٢]

ثانيا: "أن يكون على تقدير اعتقادهم وزعمهم بأنه غير الله يبدع، قال الراغب: "فاحسب أن ههنا مبدعين وموجدين فالله أحسنهم إيجادا على ما يعتقدون".[٣] وقد استبعده العز بن عبد السلام إذ يقول ناقلا عن الآمدي "...وأجاب السيف الآمدي عن هذا بأن معناه أعظم من يسمى بهذا الاسم – ثم قال العز – وهذا مشكل لأنه حصل التفاضل في غير ما وقع اللفظ بازائه". وقال: "إن أفعل لا يضاف إلا إلى جنسه، وها هنا ليس كذلك، لأن الخلق من الله بمعنى الإيجاد، ومن غيره بمعنى الكسب، وهما متغايران... ".[٤]

واعتراض العز هنا وجيه، وعليه لا يمكن حمل الخلق في هذه الآية على معنى الإيجاد من عدم بل يلزم حمله على معنى آخر كالتقدير. ثم إن هذا القول يوقع في إشكال هو جواز أن يقرهم القرآن على شركهم. ويبني عليه خطابه، وهو باطل ولا يعتبر من مجاراة الخصم لإثبات بطلان دعوته ـ وهو أسلوب من أساليب الجدل والحجاج ـ لأن هذا

---

(١) الراغب، ص ١٦٤.

(٢) البرهان، الزركشي، ٢/١٨١.

(٣) ذكره الراغب في المفردات، ص ١٦٤.

(٤) فوائد في معرفة مشكل القرآن، العز بن عبد السلام ص ١٩٦.

الأسلوب له خطواته التي تنتهي بإبطال دعوى الخصم[1] وهذا لا يتوفر في مثل هذا المثال.

المثال الثاني: يقول تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٨٨) هذه الآية توهم تعارضا مع ما قام عليه دليل العقل والواقع من أن الإنسان بطبيعته يفرح بما يفعله من خير، إذ الآية تذم الذين يفرحون بما يفعلون، وظاهر الآية عموم هذا الحكم وهذا التوهم ظهر في عهد قريب من عهد نزول القرآن الكريم فقد روى البخاري " أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل، معذباً لنعذبن أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم عنه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ". حتى قوله تعالى: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾.[2]

وعليه فإن معنى الآية ليس كما توهمه إنما نزلت إدانة لليهود حينما كتموا ما عندهم وهذا فعل قبيح، فسبب عذابهم أن فرحوا بقبيح فعلوه، وعليه فليس من فعل خيرا وفرح به كمن فعل قبيحا وفرح به.

ولكن قولنا بأن هذه الآية خاصة باليهود لا يعني أنها لا تنطبق على غيرهم إن فرحوا بما أتوا من شر وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وإلا سَيُتَوَهم تعارض آخر بين الآية وبين النصوص التي تذم الرياء وتنهى عنه مثل قوله عليه السلام: ". المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ".[3] بل الآية تعمُّ اليهود ومن شابههم في هذا الأمر، وبعبارة أخرى يقاس عليهم من شابههم في هذا الحال. وبهذا الفهم يزول التناقض المتوهم من جهتيه بين الآية ودليل العقل والواقع، وبين الآية مع القول بخصوصها باليهود مع النصوص التي تذم الرياء وتنهى عنه.

---

(١) راجع الإتقان، السيوطي. والمعجزة الكبرى، أبو زهرة، وذكر على ذلك مثالا قوله: تعالى على لسان إبراهيم: ". هذا ربي ".

(٢) رواه البخاري، في كتاب التفسير، باب لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا، رقم الحديث: ٤٥٦٧ انظر فتح الباري، ٨/ ٨١.

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لا ينل رقم الحديث ٥٢١٩ – ٩/ ٢٢٨.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة أود أن أسجل النتائج الآتية:

موهم التناقض: هو ظنّ التعارض بين آيات القرآن أو قراءاته، أو بين القرآن والحديث الصحيح، أو النقل الثابت، أو العقل الصريح.

والاختلاف المقصود دفعه عن القرآن هو الاختلاف من كل الجهات، أما غير هذا من الاختلاف الذي لا يؤدي إلى التناقض فليس مما نفي عن القرآن، ومن ذلك الاختلاف في الألفاظ الذي لا يؤدي إلى تغير المعنى، أو الذي يغير المعنى ولا يؤدي إلى التناقض. ويمكن أن نجمل الأسباب التي توهم التناقض بما يلي: وقوع المخبر عنه على أحوال مختلفة وأطوار شتى، واختلاف الموضوع، والاختلاف في جهتي الفعل وفي الحقيقة والمجاز.

أما رفع التناقض المتوهم بين آيات الله فيمكن بالتأمل ومعرفة وجوه التأويل والجمع والتوفيق بين ما ظاهره التناقض وهذه الوجوه هي:

أولا: الجمع بين الآيتين بحمل كل واحدة على وجه، كحمل واحدة على موضوع والأخرى على موضوع آخر.

ثانيا: إن لم يمكن الجمع بين الآيات واستحكم التناقض من كل الجهات صير إلى القول بالنسخ.

ويلحق بالاختلاف بين آيات القرآن الاختلاف بين قراءاته المقبولة، بأن يَرِد معنى في قراءة ويرد في قراءة أخرى معنى يناقضه، لأن القراءة المقبولة آية من القرآن، وليس من ذلك اختلاف القراءات في اللفظ بما لا يغير المعنى أو الاختلاف في المعنى مما يكون اختلاف تغاير، لا تناقض وتضاد.

كما يلحق بموهم التناقض ما يتوهم من التناقض بين القرآن الكريم والحديث الصحيح؛ لأنه كما لا يجوز التناقض بين الوحي المتلو لفظا ومعنى، كذلك لا يجوز بين الوحي المتلو لفظا والوحي المنزل بالمعنى؛ لأن مصدرهما واحد هو الله سبحانه وتعالى المنزه عن كل نقص، وكلامه سبحانه وتعالى كذلك.

ويلحق بموهم التناقض ما يتوهم بين آيات القرآن الكريم والحوادث التاريخية الثابتة، ويعد من قبيل التناقض بين القرآن والواقع؛ لأن ما ثبت بالخبر الصحيح كان في زمانه واقعا ثابتا، وبما أن القرآن خبر صادق فلا يجوز أن يعارض غيره من الأخبار الصادقة.

ومما يندرج تحت موهم التناقض ما يتوهم من تناقض بين القرآن الكريم والعقل الذي يسير وفق الشرع، فالقرآن كلام الله والعقل إذا سار وفق كلامه فلن يخالفه، وإن خالفه فإما أن يكون العقل باطلاً أو مجرد شبهات، أو أن يكون الوحي خفي الدلالة ويحتاج إلى تأويل.

* * *

المراجع

- ❖ أبجد العلوم، السيد صديق خان القنوجي البخاري، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الأولى ١٩٩٩.
- ❖ الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ١٩٨٧.
- ❖ أثر القراءات في الفقه الإسلامي، صبري عبد الرؤوف القوي، أضواء السلف بالرياض، الأولى ١٩٩٧.
- ❖ أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله الشهير بابن العربي، دار الفكر، لبنان.
- ❖ أحكام القرآن،محمد بن إدريس الشافعي،تحقيق محمد الكوثري، مكتبة الخانجي ببغداد، الطبعة الأولى ١٩٥١
- ❖ أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن محمد الجصاص، تحقيق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية.
- ❖ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبعة المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣، وطبعة دار الفكر، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م. بيروت.
- ❖ الإعجاز البياني للقران، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعرفة.
- ❖ الأعلام ، قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة ، ١٩٨٢، والعاشرة، ١٩٩٢.
- ❖ أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب أي التنزيل، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.
- ❖ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي،تحقيق دار احياء التراث،بيروت الأولى ١٩٩٨.
- ❖ البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي، حققه عادل احمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١. وطبعة دار الفكر، تحقيق صدقي محمد جميل، بيروت،١٤٢٠هـ
- ❖ البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، لبنان الأولى ١٩٨٦.
- ❖ البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق يوسف المرعشلي وآخرون، دار المعرفة لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

❖ تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق احمد صقر، المكتبة العلمية.

❖ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار الخير، الأولى ١٩٩٠.

❖ تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله والصحابة والتابعين، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق اسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، لبنان، الثانية.

❖ تفسير الكبير، الفخر الرازي، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٩٧الثانية.

❖ التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

❖ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق محمد شاكر، دار التراث، ط ٢٠٠١.

❖ الجامع الصحيح (سنن الترمذي) أبو عيسى بن عيسى الترمذي، دار ابن حزم، الأولى ٢٠٠٢

❖ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق محمد إبراهيم الخفاجي، الطبعة الأولى ١٩٩٤.

❖ حجة القراءات لأبي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، جامعة بنغازي، الأولى ١٩٧٤.

❖ الحجة في القراءات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية،بيروت،الأولى ١٩٩٩.

❖ درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

❖ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد أمين الجكني الشنقيطي، ضمن تفسير أضواء البيان.

❖ روح المعاني، محمود الألوسي البغدادي، دار أحياء التراث، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

❖ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار ابن حزم، الأولى ٢٠٠٢

❖ السبعة في القراءات، لابن مجاهد تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

❖ صحيح مسلم بشرح النووي تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المؤيد، الرياض، الثانية ١٩٩٥.

❖ غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق شمران سركال يونس العجلي، دار القبلة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

❖ فتح الباري بشرح صحح البخاري، أحمد بن على بن حجر العسقلاني، محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، الثانية، ١٩٨٧.

❖ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، حققه فريال علوان، مكتبة الرشيد، الرياض،

الطبعة الأولى ١٩٩٩.

❖ القراءات الشاذة لعبد الفتاح القاضي دار إحياء الكتب العربية،بدون رقم وتاريخ طبعة.

❖ القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، محمد الحبش، دار الفكر دمشق الأولى ١٩٩٩.

❖ القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة السعودية الأولى ١٩٩٦.

❖ القراءات وأثرها في علوم العربية، محمد سالم محيسن، دار الجيل بيروت،الأولى ١٩٩٨.

❖ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الريان الثالثة، ١٩٨٧.

❖ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، الخامسة ١٩٩٧.

❖ اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين لاشين، مطبعة الفجر الجديد، بدون تاريخ طبعة.

❖ لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت.

❖ المبسوط في القراءات العشر، أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني، ٣٨١هـ تحقيق سبيع حمزة حساكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

❖ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت،١٩٩٥.

❖ مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع، ابن خالويه، مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ مذاهب التفسير الإسلامي، للمستشرق اجنتس جولد تسهر، تحقيق عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ١٩٥٥٠.

❖ معالم التنزيل، الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، تحقيق خالد العك، دار المعرفة، الأولى ١٩٨٩.

❖ مغني اللبيب، عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري المصري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٩١.

❖ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، تحقيق كامل البكري وعبد الوهاب أبو النور دار الكتب الحديثة، مصر.

❖ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق خليل

العيتاني، بيروت ، دار المعرفة ، الثالثة ، ٢٠٠١.

- مقدمة جامع التفاسير، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق احمد حسن فرحات الأولى ١٩٨٤.
- من علوم القرآن، فؤاد علي رضا، دار أقرا مصر بدون تاريخ طبعة.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مع تعليقات الذهبي في التلخيص، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠
- النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد ابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، دار الفكر للطباعة.

* * *